أنـتِـيبَـيُـوتِـك

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسـم الكتـاب:	أنـتِـيبَـيُـوتـِك
التــأليــف:	مروة الطحاوي
موضـوع الكتـاب:	أدب إجتماعى
عدد الصفحات:	220 صفحة
عدد المـلازم:	14 ملازم
مقاس الكتـاب:	14 × 20
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقـم الإيـداع:	2017 / 3277
الترقيم الدولى:	ISBN: 978 - 977 - 278 - 682 - 4

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533



أنتِيبَيُوتِك

مروة الطحاوي

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء

إليها..

ذاتِ الرّداء الأبيض..

الفهرس

مقدّمة

لا شكّ أن الإنسان هو جوهرُ الكون، وأنّ جمال الإنسان هو مادّة الجَمال فيه، ذاك أنّ الله عزّ وجل قد كرّم بني آدم ثمّ كلّفهم بعبادته التي لم يُخلقوا إلّا لأجلها «وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبدون» ولكي يعبد الإنسانُ خالقَه سبحانه وبحمْده فلا بدّ أن يكون صحيحَ القلب والعقلِ والرّوح والجَسد، وبقدْر ضعفِ صحّة الإنسان تقلّ عبادتُه تخفيفًا، وبقدْر قوّة صحّته؛ تكون عبادتُه تكليفًا، وإذا سلّمنا بأنّ الإنسانَ هو جوهرُ الكون، وأنّ صحّة الإنسان القلبيّة والروحيّة والعقليّة والجسديّة هي جوهرُ الحياة فيه؛ فإنّ مَن يساعد الإنسانَ على الاحتفاظِ بصحّته؛ يساعدُ الكونَ على الاحتفاظِ بجوهره، والجَمالَ على الاحتفاظِ بمادّته، والحياةَ على سرّ الوجودِ فيها.. الذي يكونُ سببًا في إحياءِ الإنسان؛ يكونُ سببًا في إحياءِ عبادته، ليكون بالتالي سببًا في استمراريّة حياة الكون الذي خُلق الإنسانُ ليحييه بالعبادة فيه.. نفهمُ هذا في ضوءِ قولِه سبحانه (ومَن أحْياها فكأنّما أحْيا الناسَ جميعًا..) لنفهَمَ من ذلك إلى أيّ حدٍّ يجبُ أن نُقدّر دورَ الممرّضة.

نفثة..

من حقّ كلّ صاحب مهنة أن يطوّر من نفسه، بل واجبٌ عليه أن يفعلَ ذلك، إنْ كان نجّارًا طوّر من نفسك لمواكبةِ أحدث الـ (موديلات)، وإنْ كان مهندسًا معماريًّا طوّر نفسَه لمواكبة أحدث البِنايات، وإن كانت مصمّمة أزياء طوّرت نفسَها لمواكبة أحدث الصّيحات، إنْ كان محاسبًا في شركة أو كاتبًا تابع أحدثَ البرمجيّات، وكلّما ارتقى بمهنته؛ ارتقى أكثرَ في مستوى مَن يتعاملُ معهم واختارَ لنفسِه محيطًا من الأشخاص يتوافقون معه فكريًّا واجتماعيًّا ومهنيًّا أو حتى ماديًّا.. ربما وصلَ الأمر أنْ يختار مَن يتوافق معه في طريقةِ ملبسه أو تناوله للطعام.. لا شكّ في أهميّة ذلك؛ فالراحةُ مطلوبة ليتمّ الإنجاز.

مهنةٌ واحدة يرتقي أصحابُها كلّ يوم، يحاولون تطويرَ أنفسهم، يجدّون ويجْتهدون، يتابعون الجديدَ فيها، يرتفع مستواهم المهنيّ والأخلاقيّ والفكريّ والعلميّ، لكنّهم لا يشترطون أبدًا - ولا يحقّ لهم ذلك - في المحيطين بهم أنْ يكونوا على درجةٍ معيّنةٍ من علْمٍ أو ثقافةٍ أو فكرٍ أو مادّة.. بل يتعاملون مع كلّ متلقٍّ لرعايتهم بغضّ النّظر عن فكرِه ولونه وجنسِه ودينه وجنسيّته وعمره. شيءٌ مُجهد، أليسَ كذلك؟ لكنّ المُمرّضة تستطيع.

معْلومة..

إمْراضٌ: م ر ض. مصدر أَمْرَضَ **إِمْراضُ الرَّجُلِ**: صَيْرُهُ ذا مَرَضٍ، جَعْلُهُ مَريضًا.

مرَّضَ: مرَّضَ يمرِّض، تمريضًا، فهو ممرِّض، والمفعول ممرَّض.

مرَّض المعالجُ المريضَ: داواه، واعتنَى به في مرضِه، تولّاه بالعناية والمساعدة حتى تتحسَّن صحَّتُه.

ما الذي يصيّرك مريضًا؟ تلوّث طعام؟ ماء؟ نقص علاج؟ نقص فيتامين؟ نقص أيّ شيء؟

كلّ ما يُمرِضُك نمرّضه نحنُ بإذن الله.. إلّا نقص المال..

دونك الدعاء..!

قبْلَ البدء،
لتكنْ مطمئنًا..

لا شكّ أنّك – كأيّ إنسانٍ – تحتاجُ للرّاحة ولو يومًا واحدًا في الأسبوعِ، تحتاج للنزهةِ مع أولادِك أو أهلِك، وتحتاج للراحة؟ تحتاج حتّى لتناول أكلةٍ تحبّها، وربّما تُسرف في تناولها؟ قمْ بذلك ولا تقلقْ. في نفس اليوم، هناك مَن يترك راحتَه وأهلَه ويكون على أهْبَة الاستعداد إنْ حدث لك أو لأحبابِك مكروهٌ – لا قدّر الله – ، هناك مُمَرّضة ومُمَرّض.

قالوا:

"save one life and you're a hero.

save 100 lives and you're a nurse.."

"إذا أنقــذتَـــ شــخصًا؛ فأنـــتـــ بطلـــ..

وإذا أنقذتَـــ مائةَ شخصٍ؛ فأنتـــ ممرّض.."

دي سي شوك

عُيّنتُ – كمُمَرّضةٍ – في مكانٍ أحببتُه، تفانيتُ فيه قدرَ استطاعتي في الوقتِ الذي كانت أكثرُ المُمرّضات تتسرّب فيه من العمل، وتتعرّض لمسائلةٍ قانونية، أو عقوبةٍ مالية، كنتُ أعتقدُ أنّني بطلة، وأنّ حبي لعملي والتعاملَ مع المرضى لن يتأثّر بأي عاملٍ خارجي، ولكنّ الحقيقة المُرّة أنّه عند تراكُم الضغوط وبشاعةِ التّعامل أحيانًا ودونيّة النّظرة للتمريض؛ يقلّ إنتاجُ المُمرّضة في العمل بشكلٍ مُرعبٍ يؤثّر مباشرة على الرّعاية التمريضيّة المقدّمة لمرضاها، وعلى أساس ذلك تضعفُ صحّة المريض، ومِن ثمّ صحّة المجتمع!

الأمرُ جدّ خطير! والمشكلةُ عميقة، لا بدّ أنْ تحبّ الممرّضة – والممرّضةُ بالذات – عملُها الذي يختلفُ عن أيّ عملٍ في أيّ مجالٍ آخر.. إنّها تتعاملُ مع روح الإنسان، روحِك أنت، إنْ لم تكنِ المُمرّضة مُحبّة للتعامل معك في ضعفِك وعوَزِك؛ كانت كارثة!

المرضُ عُضال، والتّشخيص عَسير، والحالةُ شبهُ مُزمنة، والعلاجُ نادر..!

في هذه الصفحات، سندعُ المجالَ لجهاز الـ (دي سي شوك) ربّما ننجحُ في إفاقة مَن يهمّه الأمر، ربّما ننجحُ في (العلاج).. لكن أولًا، ما هي أسبابُ المرض؟ مرض (امتهان) مهنةِ التّمريض؟ وما هي العواملُ (الفيروسات) المُساعدة للنّظرة الدونيّة لمهنَةِ (الممرّضة) سواء مِن المحيطين بالممرّضة أو من المُمرّضة نفسِها؟



الفيروسُ الأوّل

ليس حُلْمي..

نكبةُ الكَنَبة!

لماذا كنَباتُنا الثّلاث؟

لماذا لم أضرب مثلًا أيّ جمادٍ آخر؟ ولماذا كنتُ أضربُها أصلًا؟

ألَمْ يكُن مِن الرّحمة أنْ ألتمسَ لها العُذر؟

وأينَ كانت أمّي حين كنتُ أنهال على أثاثِها ضربًا؟ وفي المقابل، أسأل: لماذا اضطرّتني الكنَباتُ لذلك؟ ماذا كان سيُضيرُها لو استمعتْ لنصيحتي وذاكرتْ دروسَها أولًا بأوّل؟

هكذا كانَ الحال، كنتُ أتخيّل أنّني معلّمة، أدخل "أوضة الكنب" الخاصّة بالضيوف، أتخيّل تلامذَتِي وقد جلَسوا على الكنبات، أسأَلُ تلامذتي - المتخيّلين - أسئلةً حقيقيّة، أتخيّل أنهم لم يفْلحوا في الإجابة عليّ، ثمّ أقرّر فجأة "طبْ والله لأورّيكوا!" وأضربُ الكنبة ضربًا مُبرحًا..!

هكذا امتدّ الرابطُ بين ما كنتُ أحلمُ به وأعدّ نفسي له، وبين وظيفتي الحالية "كمديرةِ مدرسةِ تمْريض".

في صبيحةِ يومٍ آخر، استلمتُ "كشف" قبولِ الطلبة الجُدد..

63 طالبًا.. منهم 30 هُم (الأساسي)، والباقي (قائمة الاحتياطي) مِن واقع ما يزيدُ على (400) متقدّمٍ للمدرسة تقريبًا!

تمّ اختيار الــ (30) على أساسِ اختبارات هيئةٍ وقومسيون، وما يحتويان من كشفٍ على النظر والسّمع والطّول، والوزن، والإملاء، وتحاليل تبرّئ الطالب من شبهةِ الإدمان، ثمّ تمّ ترتيبُهم حسبَ المجموع الأعلى بعد ذلك.

تعرفون أنّ المجموعَ الكلي للصفّ الثالث الإعدادي هو (300) درجة..

تلامذتي الجُدد حاصلونَ على 290 درجة!

أقلّ طالبٍ فيهم حاصلٌ على 274.5.. صفوة الشباب..

استلمتُ ملفاتِهم وتفرّستُ ملامحَهم الموجودة في الصّور المرفقة بالملفّات.. ملائكة!

كلّ شيء - ظاهريًّا - على ما يُرام..

الذي ينسفُ المنطقَ، ويطيشُ بكفّة القلب أنْ ترى هؤلاء الشباب معي في اليوم الأوّل للدّراسة وقد اجْتمعتُ بهم.

أدخلُ الفصل.. يقفوا بشكلٍ أوتوماتيكي لا أحبّه.. ثمّ أطلبُ منهم ألّا يفعلوا مرةً أخرى.

- أنا اسمي مروة الطحاوي، مديرةُ المدرسة، حابّه أتعرّف على حضراتكم.. ويا ريت كلّ دكتور فيكم يقول لي وهو بيعرّفني على نفسه هو داخل التّمريض حابّه فعلًا واللّا عشان الوظيفة، أو عشان بابا وماما.. باختصار قول لي كان نفسك تبقى إيه؟

- أنا إيهاب، 290، كان نفسي أكون دكتور أطفال.

- أحمد، 290، كان نفسي أكون مهندس ميكانيكا.

- أحمد، 289.5، كان نفسي (يبتسم) أكون طيّار.

- بهاء، 289، كان نفسي أكون مُبرمج.

- عبد الله، كنت أتمنّى أكون دكتور.

- محمد، بحبّ الرّسم قوي يا مِس!

وهكذا، لا تكاد تجدُ فيهم إلّا اثنين على الأكثر دخَلا التمريضَ طواعيةً وحبًّا، أمّا الباقون فقدْ تقدّموا بناءً على رغبةِ الوالديْن، أو الحصول على وظيفة!

يعلمُ الله كمّ تعبي النّفسي الذي أعانيه في مثلِ هذا الوقت من كلّ عام..!

انْتحارٌ جماعيٌّ لطموحِ الشباب.

تحطّم أحلامِهم على عتبةِ المدْرسة!

أي سوادٍ نعيشُه؟ وأي تمزّق أشعرُ به؟!

وقفتُ في الشباك – أثناءَ التقديم – أصرخُ في الأهالي:

يا جماعة، اسمعوني.. إوْعوا يكون حدّ فيكم مدخّل ابنه غصْب عنه، الولاد مجاميعهُم حلوة،

وده دبلوم تمريض.. احتمال كبير ما يكمّلش كليّة!

ناداني أحدُهم:

بقولّك إيه يا مسّ.. مش هيشتغل في الآخر؟

– آه.

– خلاص!



الفيروسُ الثاني

الإعلام..

الفاتنتان..

في الصفّ الثالث الإعدادي، وعلى قارعةِ الطريق، كنتُ أنتظرُ العربة - أيّ عربة - التي ستقلّني من المدرسة إلى المنزل، قابلتُهما، تعرّفتُ عليهما، أخبرَتاني باسْميْهما "مها" و"فاتن"، ثمّ كانت المفاجأةُ لي أنّهما مُمرّضتان!

أحببتُهما جدًّا، لا أعرفُ على وجْه الحقيقة لماذا أحببتُهما؟ هل كان حبّي لهما خالصًا، أمْ أنّني أحببتُهما لأنّهما طلبتا مِن السائق ألّا يأخذ منّي الأجرة؟ أعتقدُ أنّ السبب الأخير قد لعب دورًا هامًّا.

في نفس الأيّام تقريبًا، عُرِض فيلم كانت بطلتُه الممثلة "فاتن حمامة"، قامت فاتن في الفيلم - بعملٍ يأباه الشّرع وترفضُه التقاليد، ومع ذلك صارتْ "بطلة الفيلم"، ثمّ هربت من بيتِها لتتوارى مِن القوم مِن سوء ما جاءتْ به، ثمّ دارَ بها الزمن دورتَه لتنجح في النّهاية (كما يقرّر المخرج) أنْ تكوّن نفسها وتستعيدَ الثّقة في شرفها، هذا كلّه لأنّها عمِلتْ "مُمرّضة"!

حزنتُ جدًّا بعد مشاهدتي للفيلم، ثمّ زاد حزني لأنّه لم يكنِ الأخيرَ من نوعه، فأصبحتُ في مقارنةٍ عقلية بين فاتن الأولى التي تعرّفتُ عليها في المواصلات، وفاتن الثانية التي أدّت دور المُمرّضة بأسخفِ وأحطّ ما يكون.



الفيروسُ الثالث

نظرةُ المجتمع..

232

في الصفّ الثالث الإعدادي، كانت كلّ واحدةٍ في زميلاتي تؤهّل نفسَها للالتحاق بالمدرسة التي تتّفق مع ميولها، وكانت الغالبيةُ العظمى فينا تفضّل الثانوية العامة على ما عداها، وكنتُ رغم حبّي للتمريض؛ أتأرجح ما بينه وبين الثانوية العامّة لأكون مثلَ زميلاتي، وكنت قد سمعتُ أنّ هناك فصلًا اسمُه (فصل المتفوّقين) خُصّص في الثانوية لمَن يحصل على مجموع 232، فدعوتُ الله – تعالى – أنْ أحصل على هذا المجموع؛ فحصلتُ تحديدًا على 232،5، ثمّ قدّمتُ أوراقي في المَدرستيْن الثانوية العامة تلبيةً لرغبة أبي، والتّمريض تلبيةً لرغبتي، وبقيتُ فصلًا دراسيًّا كاملًا أشعر بصراعٍ داخليّ.

هل كان دورُ "فاتن حمامة" الفاضح في الفيلم، ثمّ لجوؤها بعد ذلك لوظيفةِ المُمرّضة هو السبب؟ هل كان مجموعُ مدرسة التّمريض الذي وضعتُه كحدٍّ أدنى للقبول، والذي كان بالمناسبة 140، أي ما يساوي نصفَ المجموع الكلي، بمعنى أنّ مَن نجحَ (على الحُرُكْرُك) يستطيع أن يتقدّم للمدرسة؛ هو السبب؟ هل كانتِ الهوّة بين تفوّقي الدراسي وميولي الوظيفيّة هي السبب؟ كل كانَ عدمُ قناعة والديّ بالمدرسة وانقطاعُ أملهما في أن تكونَ ابنتُهما طبيبة؛ هي السّبب؟

هل كان عتابُ الأطباء لي (انتِ متفوّقة؛ ليه ماتدخليش ثانوي!) وكأنّه ليس من حقّ مهنة التّمريض أن ينتسبَ إليها المتفوّقون؛ هو السبب؟ هل اجتمعتْ كلّ هذه الأسباب لتبكيني حتى انتهى فصلٌ دراسيٌّ كامل قبل أن أقْتنع تمامًا بما اخترتُه لنفسي بنفسي؟! لا أعلم.. ستمرّ الأيام بعدَ ذلك، وأجلس مع طلابٍ وطالبات يبْكون نفسَ بكائي رغم مرّ السنين لتُثبت الأيام أنّ المُمرّضة لا زالت تعاني نظرةً مجتمعيّةً دونيّةً إلى حدٍّ كبير!



الفيروسُ الرّابع

ضغطُ العمل..

"تو نيرس!"

في قسم (كُلى صناعي) كنتُ أعمل كرئيسةِ قسم، كانت مهامّ أخصائية التّمريض التي تشرف على القسم محدّدة؛ بأنّ عليها الإشراف على المُمرّضات والممرّضين الموجودين في القسم، والإشرافَ على الأداء الوظيفي من حيث الجودةِ والتحكّم في العدوى، بالإضافة إلى ملء بعضِ الدفاتر الخاصّة بالمرضى أو بالقسم أو بالممرّضات أنفسهنّ على اختلافِ هذه الدفاتر يوميّة كانت، أو أسبوعية، أو شهرية؛ بالإضافة إلى دفاترَ خاصّة بتحاليل المرْضى ومتابعة حالتِهم بشكلٍ لا أبالغ إنْ قلتُ إنّه يُتابع كلّ ساعتين تقريبًا.

كانت مهامُّ الإشراف صعبةً ومهمّةً للغاية. في هذه الأثناء، وفي ظلّ كلّ هذه (المعمعة)، كان عملي (الواقعي) هو أنّني (بيد سايد نيرس) أيْ ممرّضة عادية جدًّا، تقوم بمهامّ خاصّة بالمريض لا تمتّ للإشراف بِصِلة!

كان عليّ أنْ أساعد المُمرّضات في أعمالهنّ من تعْقيم الأسِرّة وتعليقِ المحاليل الوريديّة، وإعطاء الحقن، وتشغيل ماكيناتِ الغسيل، وملاحظة تدفّق الدّم داخلَ الأنابيب، ومنها إلى جسم المَريض والعكس، ثمّ قياس الضّغط والنّبض والتّنفس والحرارة لكلّ مريضٍ في كلّ (شفت) علمًا بأنّ عدد المرضى كان يزيدُ في بعضِ الأحيان عن (٤٠) مريضًا في الصّالة الواحدة في الـ (شفت) الواحد، بينما يحتوي اليومُ الواحدة على ثلاثة (شفتات)!

كان عددُ المُمرّضات لا يزيد في أحيانٍ كثيرة عن أربع مُمرّضات، وأحيانًا كانت تمنع الظروفُ بعضَهنّ من الحضور ليبقى في الشفت مُمرّضة أو اثنتان. ذات مساء، كان إجمالي عدد المُمرّضين الموجودين في صالةِ الغسيل الكلوي هو مُمرّضة واحدةٌ وممرّض واحدٌ.. جديرٌ بالذكر أنّ هذه المُمرّضة كانت أنا!

تركتُ مهامَّ الإشراف (التي أحاسَب عليها حتمًا) وتوجّهت لبعض المرْضى لأساعدَ زميلي، وبينما كنت أنزعُ الأنابيب المتّصلة بذراع (أ. إبراهيم) أحدِ المرضى، والذي جاء منذ أيامٍ قليلة من دولةٍ عربية، قال لي (انتوا هنا بتتْعبوا قوي يا مس مروة، هناك تو نيرس لكلّ مريض!) في حسبةٍ بسيطة سنفترضُ أنها ممرّضةٌ واحدة لكلّ مريض (وليست ممرّضتين "تو نيرس») يعني هذا أنّ الصالة التي تحتوي على ٤٠ مريضًا ستحتوي على ٤٠ ممرّضة، ناهيك عن احتوائها على ٨٠ ممرّضة إذا سلّمنا بصحّة ما قاله (أ. إبراهيم).. ٤٠ ممرضة هناك يقابلهنّ ٤ ممرّضات هنا، ثمّ أطالب هؤلاء الأربعة بما تقوم به أربعون! هل نتوقّع منهنّ نفسَ الأداء!؟

الفيروسُ الخامس

إذا رقصَ ربُّ البيت..!

(فُلان الفلاني)

كان دكتور فلان الفلاني مديرًا لأحدِ المستشفيات، كان مديرًا حازمًا ظالمًا، ذا شخصيّة قويّة، يخاف بطشَه الجميع، ترى - أوّل ما ترى - مستشفى نظيفًا جميلًا، كلّ ما فيه ومَن فيه منضبطٌ.

في قسم (الاقتصادي) عالمٌ جميلٌ مُبهج يحسبُه الظمآن ماء، حتى إذا ما مررْتَ بالقسْم (المجاني)؛ عرفتَ أنّ ما رأيتَه لم يكن شيئًا..

كان د. فلان شُعلةً يصْطلي بها مَن يجيدُ الاقتراب منها، في المقابل كان هناك مَن لا يحبّون التملّق، ولا يسعون لدائرةِ الضوء، حتى أمستِ المستشفى ما بين مُحترقٍ ومنطفئ!

كان هناك ظُلمٌ بيّن في التّفرقة بين مرضى (الاقتصادي) ومرضى (المجّاني)، وبين رواتب موظّفي د. فلان وموظّفي المرضى. ذات صباح، ذهبتْ له إحدى المُمرّضات تشكو له عدمَ وجود أجهزةِ قياس الضّغط في القسم (المجّاني) الذي تعمل فيه، فناداها وطلبَ منها الاقتراب - في حضرة جمعٍ من الأطباء - فلمّا اقتربت فتحَ جيبَ قميصه يقولُ لها بسخرية: (دوّري هنا يمكن تلاقي جهاز ضغط)!

وفي يومٍ آخر، ذهبتُ له أطلبُ منه تغييرَ الشركة التي يتعاقد معها للحُصول على المُستلزمات الطبيّة لرداءتها؛ فقابلَ طلبي بتعنّتٍ شديد ثمّ لمّا تكرّرت مواقفي واعْتراضاتي أطلقَ عليّ "جميلة بو حريد»، ثمّ كانت النهاية أنْ أخلاني إخلاءً تعسّفيًّا من المستشفى كلها!

تبدّلت الأحوال، وأمسك بزمامِ الأمور مُدَراء أقلّ منه تعنّتًا وتعجْرفًا، لكنّهم في الوقتِ نفسه أقلّ منه كفاءةً ومهارة، ثمّ جاء بعدَهم مَن هُم أقلّ منهم كفاءةً وديانةً!

تجدُ المستشفى ترمّم ويُهدَم معظمُها بزعم الإصْلاحات أكثرَ من مرّة في أقلّ من خمسة أعوام، فتُصرف ملايينُ الجنيهات؛ بعضُها في لا شيء، وجُلّها في جيوبهم!

تأرجحَتْ أحوالُ الممرّضة؛ في كلّ مرّة يتبدّل فيها المديرُ تجدها كالأَمَةِ في بيتِ سيّدها، إن كان ديّنًا؛ كانت كذلك، وإنْ كان فاسقًا؛ أمسَتْ كذلك!

إنْ سَرق المديرُ من جيْب موظّفيه؛ سرقتِ المُمرّضة من جيبِ مَريضها، وإنْ أعطاها المديرُ حقّها؛ أعطتْ مريضَها حقّه.. منهنّ استثناءٌ لا شكّ، لكنني رأيتُ أنّ بيئة التّمريض تتأثر تأثّرًا مباشرًا بشكلِ الإدارة؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ.. فهلْ من الإنصافِ إهمالُ الجانب الأوّل عندما ندينُ الجانبَ الآخر!؟



الفيروسُ السّادس

اللّامبالاة..!

اسمها يا باي مش يا باي!

كنتُ أتدرّب يومَها في قسم العمليات، جاءنا اتصالٌ أنّ هناك عددًا كبيرًا من الأطفال في الطريق إلى القسم بعد حادثٍ مروري أصابَ عربتَهم (الربع نقل) التي كانت تقلّهم إلى الأراضي الزراعية التي يعملونَ فيها (باليومية). كان الحادثُ كبيرًا، وعددُ الأطفال أكثرَ من أنْ نحصيه، كنا نجري بأقصى سرعة، كلّ فردٍ في الفريق الصحي يساعدُ بما يستطيعه.. في هذه الأثناء، لاحظتُ أنّ أحدَ الإداريّين ماكثٌ مكانه لا يحرّك ساكنًا، فصرختُ فيه ليساعدَنا في أي شيء، ثمّ تابعت صرختي بكلمةٍ، نقولها في الرّيف نعني بها التعجّب (يا باي!) نطقتُها بتفْخِيم الباء، بما يشبهُ كلمة (باي) بالإنجليزية، بالطبع لم أنتبِه إلى كلّ هذا في خضّم ما كان يشغلُنا من الحادث والأطفال وعملياتِ البتْر.. لكني فوجئتُ بالموظف الذي لم يتحرّك من مكانه بعد صرختي، سمعتُه يصوّب لي بكلّ برودِ أعصابٍ؛ فيقول (اسمها يا باي – بالترقيق – مش يا باي)!!

سقطَ من نظري سقطةً مدوّية، وكان هذا أغربَ ما رأيتُ من اللامبالاة في مساعدةِ المُمرّضة إذا احتاجتْ للمساعدة. دار الزمن دورتَه لأعلم أنّ الموظف لم يكنْ إلّا مثالًا بسيطًا لعدم مبالاةٍ حكوميّةٍ (نقابيّة وشعْبَوية) كبيرة، ربما تُستثنى بعضُ المواقف النّادرة المشرّفة التي يُهتمّ فيها بشأنِ المُمرّضة على المستوى العام (كمهنة)، وعلى المستوى الخاص (كإنسانة)، لكنّ القاعدة العامّة أنّ اللامبالاة فيما يخصّ تطويرَ التمريض

وتحسينَ المستوى العملي والعلمي للممرّضة وتحديث المناهج الدراسيّة باستمرارٍ بالشكل المُرْضي، وتحسينَ نظرةِ المجتمع لها من خلال مقاضاةِ الأعمال الدراميّة التي تنتقصُ مِن صورتها، ومقاضاة مَن يقوم بدورها بشكلٍ غير رسمي، ودونَ الحصول على مؤهّلٍ علمي في بعض المستشفيات، والمشاركةَ في الفعاليات الوطنية، والمناداةَ بتحسين المستوى المادي للتمريض، وغير ذلك ممّا يرفع من شأن المهنة؛ رأيتُ في كلّ ذلك لا مبالاة ترتّب عليها عدمُ التقدّم بمهنةِ التّمريض إلى مصافّ المهن، وعدم التقدّم بكليةِ التّمريض إلى ما يُطلقون عليها "كلّيات القمّة"!



الفيروسُ السّابع

مأساةُ الدّراسات العُليا..

عدمُ اللامؤاخَذة..

كونكَ طالبَ دراساتٍ عُليا؛ فأنت تعرفُ على وجْه الدّقة كميةَ المعاناةِ المُمَنهجة التي تعانيها!

ثمّ إنك تعلم يقينًا أنّها لا دراسات ولا عُليا ولا هُم يحزنون! الأمرُ يعتمد على قدرتِك أنتَ على تحمّل المشاقّ الماديّة والذهنيّة والنفسيّة، ثمّ قدرتك على أنّك (تباسي) كويّس للمشرفين على الرسالة.. كلٌّ حسبَ نوع حبّه لتمريرِكَ (هدية، أو ضحكتين، أو قليل من المحلسة) وقليلٌ منهم مجتهدٌ لا شكّ.. وهنا تكمنُ المعاناة في عدمِ اجْتهادك أنت!

الأمرُ بالنسبة للممرّضة أشبهُ بنوعٍ من الجنون على ورقٍ رسمي، أو أشبَه بمجازفةِ لاعبِ جولف يقذف بالكرةِ إلى مكانٍ لا يعلم أبعادَه (يا صابت يا خابت)!

***

يكفيكَ – كطالبِ دراساتٍ عليا – أنْ تقابل موظّفة كـ "مدام فتكات" التي أقابلها كلّما احتجتُ إنهاءَ بعضِ الأوراق الخاصّة بالرسالة.. مقابلةٌ واحدة مع موظّفة كارهةٍ لنفسها مثلها تجعلُك تطرقُ دماغَك في أشهر جُدران الدنيا (وليكن مثلًا سور الصين العظيم، أو جدار هرمٍ من الأهرامات) بعددِ المرّات التي فكّرت وقرّرت فيها الانتسابَ إلى ذوي هذه الشهادات!

تشعرُ بحسرةٍ حقيقيّة إذا رأيْتني، وأنا أرتّب أموري قبلها بأسبوع، ثمّ أقترضُ حقّ السفر، ثمّ أسافرُ من محافظةٍ لأخرى، ثمّ أزاحمُ الرّجال في مواصلاتِ مصر (تحيا مصر تلت مرّات)، ثمّ أستقلّ مترو الأنفاق الذي - وللمُصادفة - زادَ حقّ تذكرتِه الضّعف (قالوا حتى يُسمِعوا الرّاكب بعضَ الموسيقى، بس جابوا على الشباب والرياضة!) ثمّ أهَرولُ على درجِ المترو صاعدةً ونازلةً، ومنها إلى السّوق المؤدّي إلى المستشفى المؤدّية إلى كلية التمريض، ثمّ أهرولُ إلى المكتب الذي فيه "مدام فتكات» فيخبرونّني أنّها (نزلت)، ثمّ أهرولُ على درج الكليّة هابطةً إلى أسفل، فيخبرونني أنّها (هناك أهيه) فأذهبُ إليها وأعرّفها بنفسي، وقبل أن أعرض طلبي تقول لي (تعالي في يوم تاني) تقولها بينما يصعدُ زجاج نافذة سيارتِها (التوماتيكي)، وتتركني كأنّي كيسٌ من القمامة ألقى به أحدُهم من الطابق العلوي!

الآن، كنتُ أسمع فيلمًا كارتونيًّا، بطلُه ثعلبٌ ذو مهارةٍ فائقة وطِيبة ملحوظة، لكنه شعرَ بمرارة بالغةٍ وهو يكلّم الأرنبة الشرطيّة التي طلبت مساعدتَه، ويقول: إذا كان العالمُ ينظر لي على أنّني ثعلبٌ خائن؛ فما الجدوى مِن التغيير؟!

إذا كانت مصر (تحيا مصر تلت مرّات) تنظر للممرّضة على أنها (حتّة تمرجيّة) مهما كانت قدرتُها العملية والعلمية والأخلاقية؛ فما الجدوى من طلبِها للدّراسات العُليا؟!

طبعًا لم أفكّر في هذا أثناءَ ذهابي للجامعة في محاولةِ استكمالٍ (إن شاء الله ماتكونش بائسة) لدراسات بدأتُها منذ أربعةِ أعوام، وكرهتُها – وللمصادفة – منذُ أربعة أعوام تقريبًا!

***

بعد أربعة (مشاوير) بين (السايْبر) والدكتور مشرفةِ الرسالةِ لتعديل بعضِ الأشياء كنتُ قد أنهكتُ بدرجةٍ أثارتْ شفقتي على نفسي، حاولتُ التنفسَ بعمق، السير ببطء، لا بأس ببعضٍ من الثقة في النفس. قبلها بثوانٍ، جاءتني مكالمةٌ نوديتُ فيها بـ (دكتور) بمعدّل دكتور لكلّ كلمة (ازيّك يا دكتور، كل سنة وانت طيبة يا دكتور، أخبارك يا دكتور، طلب صغيّر كده يا دكتور – لا!!، طيب شكرًا يا دكتور).. كان الطلبُ هو تدريسَ إحدى موادّ الجامعة لأحدِ الطلاب (درس خصوصي بالشيء الفلاني) أعرفُ أنّ (الناس المهمّين) لا بدّ أن يرفضوا أوّلَ عرض حتى تتوالى عليهم العروضُ عن أَنَفَة.. جرّبت.. (الغريبة إنّ مفيش حاجة توالت!).

صدى كلمةِ دكتور تردّدت في ذهني (دكتور.. دكتور.. دكتور.. دكتور...) ولك أنْ تتخيّل أثرَ هذا على مُمرّضة تسيرُ بجوار سور كليةِ الطبّ في أعرق جامعاتك يا مصر (تحيا مصر تلت مرّات)!

يا سعادة البيه، يا سعادة البيه، يا سعادة البيه، يا سعادة البيه ** أنا بيه.. أنا بيه.. أنا بيه.. أنا بيه.

سرْتُ بثقةٍ بالغة، ويْكأني دكتورة (بحقّ وحقيق)..!

على الجانب الآخر من الرّدهة المُفضية إلى الشارع العمومي، يجلس أحدُ العمّال (البواب)، ما إنْ رآني حتى التفتَ نحوي التفاتةً لها معنى من التعظيم!

بإمكانك الآنَ مراجعة كلّ محاضرات التّنمية البشريّة التي مَفادها (خلّيك حلو من جوّاك = هتلاقي الدنيا حلوة) كنت بداخلي (دكتورة) فشعرَ هذا الرجل العظيم بأنّني دكتورة فعلًا!

كلّما اقتربتُ منه = اشرأبّ عنقُه، وأمعنَ النظرَ ناحيتي.. وانتفشتُ بداخلي!

يبدو أنّ الـ (كوتش) الرّبيعي ذا الورْدات الصّغيرات المنثورات على أطرافه قد ساعدَ في إضفاء هالةٍ من الهيبة حولي.. هشتري منه اتنين لمّا ارَوّح!!

ساعدَ في اكتمالِ فقّاعتي من العظمة وجودُ حقيبةِ اللاب توب (أبو أربع تلاف جنيه ونص) في يميني، وبعض الملفّات في شمالي.. ما جعل الرجلَ يقفزّ قائمًا!!

انحرفتُ إلى اليسار لأخرجَ من باب (العامّة)؛ فوجدتُه (الله يبارك له) قد هرْوَل لباب الخاصة (الكبيييييير) ليفتحه أمامي!!

دعوتُ له.. أسررتُ الدّعوة حتى يظنّ أنني (متعوّدة أصلًا على كده)، وابتسمتُ ابتسامةَ شكرٍ لا تخلو من مسْحَة كبرياء.. (لأ فعلًا لايق عليّ أكون دكتورة!)

يبدو أنّه غاضٌّ لبصره.. لم ينظرْ لي وجهًا لوجهٍ إطلاقًا.. كانت كلّ نظراتِه.. (لا مش في الأرض)، بل كانتْ على شيءٍ ورائي..

***

فتحَ البوابة الكبيرة قائلًا: تفضّل يا دكتور. ممهّدًا الطريقَ لسيارة الطبيب الذي كان خلفي!

الفيروسُ الثّامن

حكومة أمّ عتْريس..!

العُهدَةُ والعَهْد..

في أحدِ المُستشفيات، رأستُ قسمَ (باطنة حريم) وعملتُ فيه بجدٍّ، أحببتُ عملي وتفانَيتُ فيه، كنتُ أحبُّ مرضاي بشكلٍ غير عاديّ، بمجرّد رؤيتهم في الصباح؛ تذهبُ عنّي همومي.. شيءٌ وحيدٌ كان يؤرقني.. (الملايات فين؟!)

كانتْ ملاءاتُ أسِرّتهم مهترئةً ومتّسخَة، وتغيّرُ للمريضِ الواحد مرّة كلّ عدّة أيام، وكنتُ في بدايةِ عملي ما زلتُ، فظننْتُ أنّ هذه هي إمكاناتُ المستشفى، حزنتُ لِما أراه حزنًا شديدًا. وفي ذات يوم، جاءَ للمستشفى مرور، وما هي إلّا لحظات يا مؤمن وقد تغيّر كلُّ شيء! بدايةً مِن سور المستشفى الذي زُيّن بالأعْلام الملوّنة؛ انتهاءً بخالتك أمّ عتريس..

مَن هي خالتك أمّ عتريس؟ ويحك! إنّها الحكومة..!

كانت العاملةُ الموجودة بالقسم، والتي تُدعى "أمّ عتريس" هي المتحكّم الرئيس في شأنِ المَرْضى، اكتشفتُ أنّ لديها (مخزن) به الكثيرُ من (العُهدة)، ملاءات وأدواتُ نظافةٍ وكراسيّ مُتحرّكة، وغيره. كانت أمّ عتريس تخشى الحكومةَ وسؤالَ الحكومةِ وورقَ الحكومة، فتضطرّ لتخْبئة عُهدتها في مخبأٍ لا يملكُ فتحَه إلّا هي، إذا طلبتُ منها تغييرَ الملاءات ماطلتْ ثمّ غيّرتها بعدَ إلحاح، ثمّ اختارتْ منها الأردَأ، وأبقتْ على الأحلى ليستمتعَ برؤيته المرور، وليضربَ المرضى رؤوسَهم بعرْضِ الحائط! مارستْ عليّ "أمُّ عتريس" سلطةً فوق السّلطة، فكنت أعاني من حكومتيْن في آن..!

ذاتَ ضحى، عرفتُ أنّ أمّ عتريس تأخذُ من أموال المرْضى بسيفِ الحَياء، وأنّ المبدأ عندها (شخلِل تعدّي)، فنهيتُها عن ذلك، ولمّا خفتُ أنْ تكرّر الأمرَ دونَ علمي؛ طلبتُ من المرْضى ألّا يعطونها شيئًا، فلمّا عرفتْ هي هذا؛ شكتني لربّ السماء، ثمّ لمّا لمْ يُستجَب دعاؤها؛ شكتْني لربّة القسم (أبلة فلانة الحاصلة على دبلوم فنّي، والتي كانت تكرهُني لا لشيءٍ إلّا لأنني أصغرُ منها سنًّا، وأشاركها في الإشراف) ثمّ دبّرت لي (أبلة فلانة) مَكيدة، نُقلتُ على إثْرها إلى قسمٍ آخرَ لأجدَ (عتاريسًا وعتريسات) كُثُر!

كان المفترض أنْ تحافظ (أمّ عتريس) على عَهدها برعاية المرْضى، وأنْ تنفقَ العُهدةَ إكرامًا لضيافتِهم، فحدث العكسُ بأنْ أضاعت العَهد، وحفظت العُهدة!

كانتْ (أمّ عتريس) مثالًا مُصغّرًا لسلطةٍ تبخلُ على المرْضى بآدميّتهم، وكنتُ (بضعفي) مثالًا لفاقدي السّلطة، وكانتْ (أبلة فلانة) مثالًا للدّاعم المستمرّ للخطأ في سبيل استمرارِ سُلطتها. ثلاثيّ يكبُرُ ويتّسع ليطالَ أشخاصًا وربما هيئات.. تُطحَن المُمرّضة فيها فتؤثِر - غالبًا - السلامة!



الفيروسُ التّاسع

خصْخصةُ الممرّضَة!

تآخدي كام.. تساوي كام!

عندنا في الريف مثلٌ شعبيّ يقول "معاك كام= تسْوَى كام» أيْ أخبرني كَم مِن المال معَك؛ أخبركَ كَم تساوي. مثالٌ على بساطتِه إلّا أنه يكشفُ مأساةً كبرى أمسَيْنا نعاني منها في أيّامنا هذه بكلّ أسًى وأسف..!

المؤسفُ أكثرُ والدّاعي للأسى الأكبر؛ أنْ يمتدّ هذا المثالُ ليُطبق عمليًّا بشكلٍ يوميّ في جلّ المُستشفيات مع كثيرٍ من المُمرّضات، بيْد أنّ المثل الشعبيّ يطبّق مقلوبًا، فتصير قيمةُ المُمرّضة عند مريضِها ومرافقيه بقدْر ما تأخذُ منهم.. فإنْ عفّت؛ زادَ قدرُها، وإنْ مدّت يدَها حُطّ قدرُها..

في الحالة الأولى، يظلم المثلُ الشعبيّ الكثيرَ من الناس؛ حيث أنّ قيمة الإنسان لم تكنْ أبدًا - ولن تكون - بقدْر ما يملك، بل ربّما وجدتَ غنيًّا ذليلَ النفس، وفقيرًا عزيزَها..

أمّا في حالة المُمرّضة، وفي حالة عكسِ المَثَل، فإنّ الواقع يُثبتُ بوضوحٍ أنّ مهنة التّمريض تُمتهنُ لأسبابٍ كثيرة، من أهمّها أنْ «تتعاطى» المُمرّضة من مالِ المريض.

واخترتُ لفظَ «تتعاطى» لأنّ الأمرَ بالفعل يُشبِه الإدْمان، فإنِ اعْتادت المُمرّضة ذلك؛ لم تستغنِ عنه، وإنِ اتّسمت بغنى النفس؛ لن تستطيعَ فعله.

زاد الأمرُ سوءًا بعدما سوّغت بعضُ المستشفيات - خاصّةً الخاصّ منها - لهذا التدنّي في التعامل مع المُمرّضة حين حاولتْ "زخرفة" الأمر،

وأطلقتْ عليه "تِبس"، وسمحت للممرّضة أن تقبلَ به، بلْ وفي بعض الأوقات تُطالبُ به!

الأمرُ بالنسبةِ لي كارثيّ، ربّما يرى البعضُ أنّي مُبالِغةٌ في توْصيفي له، لكنّ هذا حقًّا ما أشعرُ به.

قولٌ مأثورٌ نُسبَ لسيدنا عليّ - كرّم الله وجهه - يقول: (الإنسانُ أسيرُ الإحْسان). وقد صدقَ القولُ إلى حدٍّ كبير.. فالمُمرّضة التي تأخذُ منَ المريض مالًا؛ لن تستطيعَ بعد دقائق أنْ تمنعَه من التّدخين مثلًا، ولن تمنعَه بعد ثوانٍ من دخولِ زيارةٍ له في غير موْعدها..

ذاتَ يوم، رأيتُ مُمرّضةً قد نادى عليها مرافقٌ لأحدِ المرضى، ثمّ لمّا توقّفتْ لترى ماذا يريد؛ مدّ إليها يدَه مَقبوضةً على مال، وكانت المستشفى مخصّصةً لمرضى القوّات المسلّحة ممّا يعني أنّ يدَ المُرافق قد احتوتْ على الكثير، لكنّ وجْه المُمرّضة قد تغيّر لونُه، ثمّ احتدّ صوتُها عليه، ورفضتْ رفضًا قاطعًا، ثمّ اعتذرَ الرّجل بعد أنْ أكبَرَ لها هذا الموقف.

أنا هنا لا أقول (حلال) أو (حرام)؛ فلستُ لذلك أهْلًا، لكنّي أرصدُ ما أراه مِن توْقير المُمرّضة التي لا تقبلُ بهذا الأمر، ورفعةِ قدرها في نظرِ المرْضى وزملائها من الفريق الصحّي، وفي المقابل أرى النظرةَ الدّونيّة لها في أعْين مَن تقبلُ منهم ذلك..

سيذهبُ المالُ.. ابقِي - يا حبيبتي - على مُروءتك.



الفيروسُ العاشِر

احْمِ قلّةَ الرّاتب..

«ماي واي.. أو بامية!»

لا شكّ أنّ قلّةَ راتبِ الموظّف الحكومي ليست مبررًا أبدًا لتقصيرِه في عمله أو إهْماله، لكنْ لا شكّ أيضًا أنّ زيادةَ مرتّبه ستساعدُه أكثرَ على التركيز فيه.. أسطّر الآنَ هذه الصفحات وَلِي زميلةٌ ستُنهي مدّة عملها بعد أنْ أوشكتْ على سنّ الستّين، لم يصل مرتبُ هذه الزميلة حتى الآن إلى أربعة آلاف جنيه.. علينا أنْ نرضى بقضاءِ الله وقدره، وعلينا أن نتّسم بالقناعة والرضا، وعلينا أن نُخلِص العملَ لله، ولكنْ على ولاةِ أمورنا أيضًا أنْ يحقّقوا (العدالة الاجتماعية)، التي لطالما سمِعْنا عنها ولم نرَ منها شيئًا!

مِن المؤسف أنْ تجدَ راتبَ بعضِ مَن يتعاملون مع البترول أو الكهرباء أو هيئة السفن أو المعمار (على سبيل المثال) يصلُ أحيانًا إلى الخمسين ألف جنيه، أو أكثرَ في الشهر الواحد، وأنّ المُمرّضة التي تتعاملُ مع روحِ الإنسان التي هي أغلى مِن البترول والكهرباء والمياه لا تحصلُ حتى على خمسة آلاف! إلى الآن (٢٠١٧ ميلادية) تحصلُ المُمرّضة على (جنيهيْن ونصف) مقابلَ زواجها، وعلى (ستة جنيهات) مقابل تمْرين الطّلاب على التمريض العملي.. ليس مجالًا للحسد وقول (اشمعنى همّا) لكنّه مجالٌ للتفكير مليًّا في أهميّة النظر لرواتب المُمرّضات اللاتي لا يقلّ مَجهودهنّ عنْ مجهودِ أي مهنة أخرى، بل يزيد. المُخيف أنّ المُمرّضة بدأتْ تبحثُ عن (بديلٍ حلال) لمهنتها داخلَ مِهنتها، وتتّخذ من زميلاتها ومرْضاها وزائريهم (زبائن) لها! فتجدُ منهنّ مَن تروّج لمساحيق تجْميل مِن "ماي

واي» مثلًا، أو تروّج لملابس، أو ربما روّجت لبعضِ الخضروات والأكلات المعبّأة والمجهّزة للطهي.. بعضهنّ لا يرضينَ بالدنيّة أبدًا، ولا تستغلّ إحداهنّ وظيفتَها للبيع بأيّ حال، لكنّها (تدّي للحكومة على أدّ فلوسها) فتتفانى في عملها ساعة، ثمّ تتوارى مِن القوم خلفَ مِنضدةٍ تمدّ يدَها تحتها وتُمسك بسكّين، وفي اليد الأخرى تمسك بحبّة (بامية) لـ(تقرّمها) حتى إذا ما عادتْ لبيتها وجدتْ نفسها قد قطعتْ شوطًا لا بأسَ به في تحضير وجبة الغداء..! ومنهنّ (قليلات) لا يُتعبْن أنفسَهنّ في بيعِ وشراءِ بضاعتها، أو استغلال وقتِ العمل في إنهاءِ أعمال منزلها، بل يتطوّر معها الأمرُ إلى حدٍّ يجعلُها تستحلّ أدويةَ المريض فتأخذُها خلسةً، وتبيعها خارجَ المستشفى في سوقٍ (مُظلمةٍ ظالمةٍ) سوداء!

لا أبرّرُ للمُجرمةِ التي تفعلُ ذلك وتضيّع الأمانة وتَخونُ العهد، فهي في كلّ حالٍ مُطَالبَة بأنْ تتقي الله في مريضها ومِهنتها، لكنْ علينا أولًا إذا أردْنا حلّ مشكلة أن نبحثَ عن أسبابها، ولا شكّ أنّ قلّة الراتب أحدُ أهمّ الأسباب.. الخلاصة: اتّخاذ المُمرّضة لوظيفةٍ داخلَ وظيفة، واستغلال المُمرّضة لوقتِ عملها لتنجزَ فيه مهامَّ بيتها، وسرقة المُمرّضة أدويةَ مرْضاها لتبيعها وتنتفعَ بعائدها، كلُّ ذلك ظاهرةٌ لا بدّ مِن إماتَتها.. ولا بدّ قبْلَها من إماتةِ الظُلم وعدمِ المساواة.



الفيروسُ الحادي عشر

ممارسةُ المهنةِ

من قِبَلِ غيْر المنْتمين لها!

الحزين..!

في المرحلة الجامعيّة، انتابتني نوبةُ "حبّ الاستقلال المادي"، وأحببتُ ألّا أحمّل أبي - باركَ الله في عمره - عبءَ مصاريفي الشخصية، فبحثْتُ عن عملٍ إضافيّ، وبالطبع كان العملُ الذي أبحثُ عنه أن أعملَ كمُمرّضةٍ في أي مستشفى. بعد جهدٍ، وصلتُ لمستشفى خاصّ، ثمّ التقيتُ برئيسةِ التّمريض التي لم تبدِ إعجابًا كبيرًا بي بعدما علِمتْ أنّي مازلتُ طالبةً وأحْتاج للتّمرين، لكنّها قَبِلت بي على أيّة حال، ثمّ أرسلتني لقسمٍ داخليّ طلبتْ مني أن أعملَ فيه تحتَ رئاسة (مسْ فلانة)، ذهبتُ للقسمِ وتعرّفتُ على (مسْ فلانة) التي لم ترحّب بي بدوْرها لمّا علِمت أيضًا أنّي لنْ أساعدها بشكلٍ جوهريّ في تحمّل العنايةِ بالمرْضى بشكلٍ تام، شعرتُ بضيق، حاولتُ التغلّب عليه، كانت (مسْ فلانة) ماهرةً جدًّا بشكلٍ لا يسمحُ لي بالتعلّم أو المساعدة، كنتُ معجبةً بجُرأتها ومهارتِها في العمل، لكني - في بعض المواقف - كنتُ أرى (على ما أذكر) ما يبيّن أن معلوماتِها المهنيّة ضحلةٌ جدًّا، معلومات لا تتناسبُ مع مهارتها العمليّة، وبعد سؤال وتدْقيق فوجئتُ أنّ (مسْ فلانة) حاصلة على دبلوم فنّي تجاري!

***

بعد تخرّجي من الجامعة، عملتُ بأحدِ مراكز غسيل الكُلى، أجدتُ العملَ فيه بعد مشقّة، وصرتُ - بفضلِ الله تعالى - أملك زمامَ الأمور في المرْكز كلّه، حتى أنّ الطبيب المسئول كان يعتذرُ عن الحضور معتمدًا على وجودي، ثمّ جاء جوابُ التكليف بالعملِ ذاتَ ضُحى، فاضطررتُ لترك العملِ الخاص والذّهاب لأتسلّم عملي الحكومي. أشفقتُ على المرضى بعدما قال الطبيبُ المسئول إنّه سينقلهم إلى مركزٍ آخرَ في بلدٍ آخر يَبعدُ عنهم كثيرًا بسببِ عدم وجود مُمرّضة بديلةٍ لي، ساقَ لي القدرُ بديلًا؛ امرأة تسأل عن عمل، قبِلْتُها ثمّ أثبتَت كفاءتها ممّا هيّأ لها إدارةَ المكان بعدي.. كانت خريجةَ دبلومٍ فني تجاري أيضًا!

***

في إحدى الكليات، طافت بي وكيلةُ الكلية على بعضِ الأقسام العملية، والتي يرتادُها مئاتُ المرضى يوميًّا، كانت كلّما عرّفتني على رئيسةِ قسم أنْهت تعريفَها بجُملة (هي مش تمْريض في الأساس، بس عشان عندنا عجز)! أذكرُ أنّ وحداتِ الكلية كانت ٢٥ وِحدة، يرأسها ٢٥ (مِس) منهنّ ثلاثٌ فقط حاصلاتٌ على بكالوريوس - أو دبلوم - تمريض!

الكارثةُ الحقيقيّة أنّني فوجئتُ أنّ وكيلةَ الكلية نفسَها لا تنتمي للمجال الصحّي من الأساس!

***

تحكي لي أمّي عن (عمّي عبد الحفيظ) ذلكم الرّجل الطيّب الذي كان يمارسُ كلّ شيء له علاقةٌ بصحّة الإنسان؛ يعالج الخَراريج، ويُعطي جَرعات أدوية للحُمى، ويختنُ الصّبية، ويعالج القدَمَ السّكري... اشتُهر

(عمّي عبد الحفيظ) بأنّه (تَمرجي) أي ما يساوي عند الناس مُمرّض، طبعًا لم يجرؤوا على تلقيبِه بالطبيب لا سمحَ الله!

في وسيلة المواصلات، سمعتُها تهاتف صديقةً لها تقولُ ما معناه (سمعتِ عنْ إنّ المستشفى الفلاني عايزه تمريض؟ ما تيجي نروح.. إحنا أوْلى بالقرشين)!

***

ثمّ تُخطئ مِس فلانه، وتُخطئ وكيلةُ الكلية، وتُخطئ مُديرات الأقسام عندَها، ويُخطئ عمّي عبد الحفيظ، ويتّسمُ أحدُ هؤلاء مثلًا بالجَشع أو بسُوء الخُلق، ثمّ يصبّ الناسُ بعدَها جامّ غضبِهم على التّمريض الحقيقي الذي يبرأ مِن مثْل هؤلاء براءةَ الذئبِ من دمِ ابن يعْقوب.

كلّ مهنةٍ في الوجود لها قواعدُها، ويُعاقب مَن يمارسُها دونَ مؤهّل، إلّا الدّين والتّمريض.. الكلّ يُفتي فيه دونَ أيّ مؤهّل.. ولله الأمرُ من قبْلُ ومِن بعْد.

الفيروسُ الثّاني عشَر

انْعدامُ الضّمير،

وانْعدامُ الرّقيب..

حريقٌ في الكَبد؟!

حينما كنتُ طالبةً في كليّة التمريض، كانت المُعيدة توزّعنا على الأقْسام المُختلفة بالمُستشفى الجامعي لنتدرّب فيها، وكان نصيبي يومَها أنْ أعملَ بقسم (الكَبِد والجِهاز الهضمي)، دخلتُ القسمَ لأوّل مرّة أحاول التعرّف على المُمرّضات والمرضى، وأحاول تقديمَ الرّعاية التمريضيّة المطلوبة مني كطالبةِ تمْريض، فوجئتُ بأحدِ المرْضَى ينامُ على سرير مُتواضِع، ولفتَ نظري في المريضِ شيءٌ هالني.. كان وجْهُ المريضِ به حرقٌ كبيرٌ منظرُه بشِع!

خفتُ في البداية، وشعرتُ ببعضِ اشْمئزاز، لكنّي تذكّرتُ دوْري كمُمرّضة ليس لها الحقّ في مثلِ هذا، فاقتربتُ من المَريض أكثرَ لأعاينَ ما يُعاني منه، ربّما ساعدتُه في شيءٍ ما، وكنتُ أتساءل أثناءَ ذلك (لماذا لم يُنقل هذا المريضُ لقسْم الحروق!؟) ولكنّي قلتُ ربّما يكون مرضُه الأساس هو مرضٌ في الكَبِد؛ وهو الأوْلى بالرعاية الآن.

اقتربتُ أكثرَ من المَريض لأفاجأ أنّ ما أراه لم يكنْ حرقًا، بل كان بقايا تقيّؤ دمٍ لم تنظّفْه مُمرّضةٌ حتى جفّ على وجْه الرجل!!

هُرِعتُ لأبلّغ أيّ أحدٍ بما رأيتُ، لم أعرفْ وقتَها أحدًا، ولم أجدْ حولي أحدًا، ثمّ رأيتُ على مَقربةٍ منّي رجلًا وامرأة يجلسان حولَ منضدة يتبادلان الحديثَ ويمزحان ممّا دلّ على أنّهما ليسا غرباء عن هنا، اقتربتُ لأشكو لهما ما رأيتُ علّهما ينْصحاني إلى مَن أتوجّه، ففوجئتُ أنّهما طبيبٌ ومُمرّضة!

***

تسلّمتُ العملَ في أحدِ المُستشفيات أثناءَ فترة تكليفي، وعملتُ بقسْم (باطنة حريم)، الذي قابلتُ فيه أمّ عتريس، وأحببتُ عمَلي في القسم، كنتُ أعرفُ المريضاتِ وأحبّهنّ حتى صارتْ بيني وبينهنّ علاقة ودّ واحترام. في صباح أحدِ الأيام، عرفتُ - أو ربّما أُخبرتُ - بأنّ مريضةً جديدة قد انتقلتْ إلى القسم، وأنّ هذه المريضةَ كانت مَحجوزةً في قسْم (العناية المركزة) ثمّ جاءت إلينا.

بحثتُ عن الحجرةِ التي عرفتُ أنّها فيها، كانوا قدْ وضعوها في آخرِ حجرةٍ في القسْم، سلّمتُ على مَن فيها ثمّ اقتربتُ من إحْدى العجائز لأعرفَ أنها أمّها، ثمّ اقتربتُ من المَريضة التي كانت تُدعى على ما أذكُرُ (عزيزة)، عرفتُ أنّ عزيزة فتاةٌ عشرينيّة، لها طفلان جَميلان، لكنها أصيبتْ بمرضٍ أدّى إلى تخشّب كلّ مَفاصلِها حتى سُلامَى الأصابع! ثمّ ساءت حالتُها أكثرَ؛ ممّا استدْعاهم لحجْزها في العناية المركزة، ثمّ لمّا طال بها الأمرُ وشُغل السّرير بها مدّة كبيرة؛ نقلوها إلى قسْم الباطني حريم، قالت لي أمّها (بنتي كانت جميلة.. بسّ بمجرّد ما تعبت زوجها طلّقها وخدِ العيال..) أشفقتُ جدًّا على عزيزة، لكنّ ما حوّل شفقتي إلى صدمةٍ أنّ الرّائحة الكريهةَ التي كنتُ أغالبُ نفسي على تحمّلها ولا أعرفُ مصدرَها تحديدا، كان مصدرُها عزيزة التي - أعزّ الله القارئ - بالتْ وتغوّطت منذ ليلةٍ تقريبًا، دونَ أن تجدَ مُمرّضة تنظّفها!

كانت (عزيزة) مِن التيبّس بالقدْرِ الذي يشلّ حركتَها تمامًا، وكانت أمُّها مِن هؤلاء الذي يخافون الشكوى..!

ضاعَ حقّ عزيزة، وضاعَ حقّ مَريض الكَبِد، وضاعتْ حقوقُ مئاتِ المرضى الذين لم يجِدوا ضميرًا من مُمرّضة ترْعاهم، وتتّقي اللهَ فيهم، ولم تجدْ هذه المُمرّضة رقيبًا يذكّرها بالله، أو بالفصل مِن العمل!

جديرٌ بالذكّر أنّنا درسنا أنّ مِن أهمّ صفاتِ المُمرّضة أنها (آدفوكات)، أو كما يقول العامّة (أبوكاتو) ما يعني أنها (المحامية) التي تدافعُ عنْ حقّ المريض، فماذا يفعلُ المسكين إنْ كان المنوطُ بالدفاع عن حقّه هو نفسُه المضيّع لحقّه؟!



الفيروسُ الثّالث عشَر

الصراعُ الأزليّ بين الفنيّات والأخصائيّات

اسْتُرّ يا ربّ..

بمجرّد حصولِها على البكالوريوس، تنطلقُ المُمرّضة ذاتُ المؤهل الجامعي للعملِ في مَيادين الصّحة المختلفة، حاملةً في قلبِها حُلْمًا بتغْيير الواقع، حالمةً بنفسِها وقد غيّرته بالفعل.

تحملُ المسكينةُ معها كلّ شيء؛ الجدّ، والانتظام، والثّقة، وبعض الـ (كورسات)، لكنّها تنسى أنْ تحملَ معها إلى المستشفى (حمامة سلام) تُطلقُها في سماءِ العَمل؛ لتؤكّد لكلّ مُمرّضة (فنيّة) أنّها (والله.. والله.. مش جايّة تآخد مكانك)!

تجدُ أخصائيّة التّمريض (الحاصلة على بكالوريوس تمْريض) الاحترامَ مِن الأطبّاء والمرضى، وحتّى العمّال، لكنّها أحيانًا لا تجدُ الاحترامَ من زميلتِها المُمرّضة الفنيّة (الحاصلة على دبلومٍ فني خمسَ سنوات حسبَ النظام الحديث، أو ثلاث سنوات إنْ كانت قديمةَ التخرّج)!

كنتُ أظنّ أنّني وحدي التي أرَى، أو أعاني من هذا، لكنّي سمعتُ من زميلاتٍ لي حكاياتٍ كثيرةً تُثبت أنّ هذه ظاهرة توجدُ في الكثير مِن مؤسساتنا الصحيّة مع الأسف الشديد..

يبدأ الأمرُ بإصرار الفنيّة على مُناداة الأخصائيّة باسْمها مجرّدًا من أيّ لقب (كـ مِس مثلًا) ويمتدّ إلى النّدّيّة أو عدمِ الالتزام بأيّ إرشادات (بلاش أوامر) مِن زميلتها التي تشرفُ عليها.

تكونُ المشكلةُ أكبر إذا كانت الفنيّة أكبرَ في السنّ والخبرةِ وأقدَمَ في التّعيين، وقد ترقّت للإشْراف على المُستشفى، أو على قسمٍ فيها؛ بسبب وجودِ عجزٍ مؤقّت في العَمالة في ظرفٍ ما، ثمّ يشاءُ الله للطالبة الحديثةِ التّخرجَ أن تتعيّن في نفسِ المستشفى التي سبقت إليها الزميلة الفنيّة، ترى في ملامحِ الفنّية وقتَها الوجومَ والهجومَ والتوجّس والترقّب والشعور بأنّ هذه القادمة الغريبة قد أتتْ لـ (تسحب مِن تحتِها البساط) فتأخذ وضعيّة المدافع عمّا لم تفكّر فيه الجديدةُ على الأقلّ في أول تعْيينها.

لا أعرفُ حقيقةً أين الخللُ تحديدًا؟ ولماذا لا يتمّ الفصلُ الحقيقي والواضحُ بين الوصفِ الوظيفي لأخصائيّة التّمريض وبين زميلتِها الفنيّة، ولماذا لا تسلّم الفنيّةُ بأنّ الأخصائيّة بالفعل مسئولةٌ عن الإشراف عليها؟

على كلٍّ، أقوم بشيء أنصحُ زميلاتي الأخصائيّات به، ضعي في ذهنك أنّ الـ (كونفلكت) لن يحدث.. لنْ يحدثَ إن شاء الله.

ولا تتَعنّتي في إثباتِ جدارتكِ بالإشرافِ من البداية، دعِي زميلاتك يحبِبْنكِ أولًا.

احْفظي علاقةَ الودّ والتّغافل بينك وبينَ زميلتك مهْما بدرَ منها (مع العلمِ أنّ بعض الفنيّات أفضلُ بالفعل من كثيرٍ من الأخصائيّات، وأنهنّ أكبرُ عقلًا وفهمًا من هذه التّفاهات).

أخيرًا: عندَ دخولكِ المُستشفى تمْتِمي بأقوالٍ مَفادها (استرْ يا ربّ).. (هيِسْتر إنْ شاء الله).



الفيروسُ الرّابع عشَر

الفجوةُ

بيْن العلمِ والواقِع

تخيّل..

تخيّل.. تخيّل.. تخيّل.. تخيّل.. كلمةٌ نردّدها (بلسان المَقال، أو لسانِ الحال) في مدارس التّمريض بعدَ أذْكار الصّباح، وعند تحيّة العلم، وفي أوقاتٍ عديدة!

مدارسُ التّمريض تعاني فقرًا تكنولوجيًّا شديدًا يا سيادةَ المسئولين! معاملُ المدارس غيرُ صالحةٍ للتّدريب، معظم تدريبِ الطالبِ مُتخَيَّل!

حاولنا التغلّبَ على هذا الأمر، طلبْنا من الشّباب والفتيات أنْ يُتابعوا الجديدَ على (اليوتيوب). جمعْنا لهم أفلامًا يُشاهدونها يتعلّمون من خلالها كيفيةَ إعطاءِ الحُقن، وإجراءِ مُختلف العنايات التّمريضيّة للأمْراض والإصاباتِ المُختلفة، حمدْنا الله تعالى.. لقد أنْجزنا أخيرًا. الآن، الطالبُ على أهْبَة الاسْتعداد للتخرّج.. يتخرّج المسكينُ ليُفاجأ بواقعٍ مُختلفٍ تمامًا عمّا شاهدَ ودرس وتعلّم!

تتكرّر الشّكوى من الطلابِ لاجئينَ للـ(مِس) التي علّمتهم العمَلي (بما يرضي الله).

ـ يا مِس، المُستشفى مفيهاش مِلايات، وحضرتِك قلتِ إنّ السرير بيبقى عليه ملايْتين.

حسبْ سياسة المستشفى يا حبيبي.

ـ يا مِس، حضرتكْ قلتِ إنّ الجوانتي مفروض يتغيّر ما بين كلّ مَريض والتاني، والجوانتيّات مش مكفّيّة.

ـ مشّيها حسبْ سياسة المستشفى يا حبيبي!

ـ يا مِس....

ـ قلت لك مِليون مرّة حسبْ سياسة المستشفى حبّك بُرص!

والسؤال الجدّي: نقص اللّوازم الطبيّة والآلات والأدوية، واختلافنا كليًّا عن الدّول المتحضّرة التي تحترمُ حقوقَ الإنسان، والدّستور الذي يكفلُ للمواطنِ تلقّي العلاج المجاني، ونقص الإمْدادات الطبيّة في معظم المؤسّسات الصحية، وتردّي وضعِ طلابِ وطلبة التّمريض بعد تعْيينِهم في المُستشفيات مقارنةً بوضْعهم (وطموحهم) أثناءَ وجودهم في المدرسة وتدريبهم، كلّ هذا الذي نراهُ ونسمعُه ونعايشه يوميًّا، أهو سياسة مستشفى أمْ سياسة دولة؟!



الفيروسُ الخامسُ عشَر

الخرقُ والرّاقع..

حذاءُ عمّي محمّد..

تعرّفتُ على بعض الفتياتِ في المحافظةِ التي أعملُ بها، كنّ قد أسّسن لما سمّيْنه «شباب الخير» وكنّ يقُمن من خلالِ مجموعتِهم هذه بأعمال برٍّ كثيرة، وعرفتُ فيما بعدُ أنهنّ ينتمينَ لجماعةِ الإخوان المسلمين، أعجَبَتني أفكارهنّ جدًّا، وفكّرت في نقل بعضِ هذه الأفكار إلى المستشفى التي كنتُ أعمل مدرّسة تمريضٍ في المدرسةِ المُلحقة بها، كانت أنسبُ فكرةٍ للتنفيذ داخلَ حرم المُستشفى هي فكرةَ «المعْرض الخيري»، اتّفقتُ مع طبيبةٍ غاية في الرّقيّ اسْمها «دكتورة ميرفت القاضي». كانت هذه السيدة كتلةً من الخيْر تتحرّك بين الناس، ثمّ أبلغتُ طلبةَ المدرسة فجمَعْنا ملابسَ مستعملةً قابلةً للبيْع، وقمْنا بغسلِها وكيّها وتعليقِها على حواملَ حديديةٍ بطريقة جاذبةٍ للأنظار في زاويةٍ داخل المستشفى، وأتى بعضُهم بأحذيةٍ مُستعملة أيضًا، وأقمْنا المعرض، كنت قبل العملِ في التدريس قدْ عملتُ في المستشفى ذاتها ممّا أكْسبني معرفةً بالمُمرّضات والمَرْضى المقيمين في قسْم الكُلَى الذي كنتُ أعمل به، ذهبتُ لرئيسةِ القسْم وأخبرتُها بالمعرض، وأنّنا نبيع فيه بأسعارٍ زهيدةٍ جدًّا حتى لا يشعرَ المريضُ بحرجٍ إذا ما أعطيَتِ الملابسُ له على سبيل الصّدقة، وقامت متفضّلة بإخْبار المرضى، جاءَ مِن بعيد أحدُهم الذي لم يعْرفني لكنّي عرفتُه، اسمُه «عمّي محمد» كان كبيرًا في السنّ والمرض على حدٍّ سواء. اقترب منّي عمّي محمّد وسألني: عندك جزم يا بنتي؟ فقلتُ له: نعم. وأعطيتُه حذاءً يقيسه على قدمِه، انحرفَ عمّي

محمد قليلًا ليرى مدى مُناسبة الحذاءِ له، بدأ بخلع نعلِه لأفاجأ بأنّه أصلًا لم يكن يرتدي نعلًا على وجْه الحقيقة، بل كان يرْتدي (وجه حذاء) يغطّي به أعلى قدمِه ليظنّ الناس أنه ينتعلُ حذاء، بينما يربطُ وجه الحِذاء هذا برباطٍ حولَ قدمِه!

***

ذاتَ صباح، نادتْني مريضةٌ في قسْم (باطنة حريم) الذي كنت أشرفُ عليه، وقد كانتْ سَمِعتني أنبّه على المرضى جميعًا (يا جماعة، كلّ واحد يكون معاه ترمومتر بتاعه هو؛ عشان العدوى) فنادتني هذه السيدةُ فاقتربتُ منها، فقالتْ لي (بصّي، أنا معايا ترمومتر)، فقلت له في مزاحٍ: (شاطرة يا خالتو، برافو عليكِ) فهمستْ قائلة (اشتريه منّي)! عرفتُ فيما بعد أنّ هذه العجوز مُقيمةٌ في المُستشفى منذ أشهر، رافقَها بعضُ ذويها إلى المُستشفى، ثمّ أوْدعوها في القسْم، ثمّ اختفوا! وقد عنَتْ بما قالت أنّها تحتاج مالًا، ولو كان حتى مقابلَ الترمومتر الذي نقيسُ به حرارتها لنطمئن عليها!

***

عشراتُ المواقف التي تراها المُمرّضة يوميًّا، وما موقف (عمّي محمد) والعجوز إلّا غيضٌ من فَيض، أقابل مُمرّضات كثيراتٍ فيهنّ خيرٌ كثير، يساعدنَ المرْضى من أصحابِ الحالات الخاصّة، يحاولنَ بالفِعْل مساعدةَ هذا.. وهذا.. وذاك، ولكني لاحظتُ شيئًا أزعجني، وهو أنّ المُمرّضة تتحمّس لكلّ عملٍ خيّر عند تعْيينها مباشرة، وتهتمّ بمرضاها وتبكي لحالتِهم في كثيرٍ مِن المواقفِ التي رأيتها بنفسي، لكن ما إنْ يمرّ على

تعْيينها سنةٌ أو أكثر حتى يقلّ تعاطفُها مع النّاس. بحثتُ في الأمر، فوصلتُ إلى أنّ قلبَ المُمرّضة صحيح ربّما يقسو منْ كثرةِ ما يشاهده، لكنّ سببًا لا يمكن إغفالُه وهو أنّ الخرق اتّسع على الرّاقع، وأنّها لمّا تجد مِن نفسها أنّ مجهودَها أقلّ بكثيرٍ من الواقع الذي تعايشه، وأنّها مهْما فعلتْ فلنْ تستطيع تغطيةَ كلّ احْتياجات مرْضاها، وأنّ قلّة عددِ المُمرّضات تجعلُها تركّز في أولويّات عملها من الرّعاية الماديّة البحتة، وأنّها لا تجدُ حتى الوقتَ الذي تقولُ فيه للمريض (كيفَ حالك)؛ كلّ هذا يُشعرها بأنه (ليسَ في الإمكان أفضل ممّا كان) فتستسلمُ للأمرِ الواقع.



الفيروسُ السّادس عشَر

بيد سايد نيرس!

العاهةُ المسْتديمَة

تدرّجتُ - أو ربّما تدحْرجتُ - في مهنةِ التّمريض مِن مؤهّلٍ علميّ إلى آخر؛ دبلوم التمريض، ثمّ معهد التّمريض، ثمّ بكالوريوس التّمريض، ثمّ ماجستير التّمريض (ومش هعمل دكتوراه!).. أنتقلُ مِن مرحلةٍ إلى أخرى بعزمٍ شديد، حتّى إذا ما احتجتُ أنْ أدعمَ نفسي ماديًّا، وأغتنم وقتَ فراغي في العمل لأغطّي احْتياجاتي، وذهبتُ إلى أيّ مستشفى أعملُ بها قيل لي (بس هتشتغلي عندنا بيد سايد نيرس)، أو مُمرّضة لتمريض المريض في السّرير، أي (انسي تمامًا شغل الإشراف متعمليش علينا فيلسوفة)!

كثيرًا ما نسمع نحنُ الخرّيجات من الجامعةِ هذه الجُملة، ولا أعرفُ في الحقيقة أنُهدَّد بها، أمْ نُصدَم بالواقع؟ أنتشرّف بها، أمْ نشمئزّ مِن قائلها؟ أنا شخصيًّا أعشق التّمريض جدًّا، ولا أنفّر أبدًا مِن كوْني (بيد سايد نيرس) بل أفتخرُ بهذا، حتى أنّه إذا تعرّف عليّ شخصٌ جديد؛ لا أقدّم نفسي له على أنّني أخصائيّة تمْريض وماجستير وكذا، بل أقول (أنا مُمرّضة).. لكنْ بصفةٍ عامّة، أليس مِن الظّلم أن تهربَ إحداهنّ من العملِ الفنّي وتقرّر اسْتكمال المرحلةِ الجامعيّة والدّراسات العُليا ممّا فيها مِن مشقّة وتضْييع عمرٍ ومالٍ (في ظلّ سياسةٍ لا تحترم باحثَ الدّراسات العُليا، ولا تعترفُ بمجهوداته، ولا تعتمدُ نتائجَ بحثِه) تفعل كلّ ذلك لـ(لتنأى) بنفسِها

عن التّعامل المباشر مع المَريض ممّا في ذلك من معاناةٍ وإرهاقٍ نفسيّ وجسَدي لا ينكرُه أحد، ومِن بعض المَهانة التي تجدُها المُمرّضة (بسببِ العوامل التي سردْناها سابقًا) ثمّ تفاجأ بعد ذلك بأنّه لا فرقَ بين عمَلها وعملِ مَن اخْتصرتِ الطريق، وحصلتْ على الدّبلوم؟!

لا شرفَ يعْلو على شرفِ أن تمرّض المُمرّضة مريضَها حتى يتمّ شفاؤه أمامَ عينيها، لكنّ العدلَ لا بدّ منه، والعدلُ يقتضي أن يجدَ مَن تعبَ نتيجة تعبِه، وأنْ يتحمّل مَن آثرَ السّلامةَ نتيجةَ قراره، لا أنْ نجدَ مثلَ هذه العبارة أيْنما توجّهنا لنضرب بأحلامِنا في تغْيير الواقعِ عرْض الحائط! الجديرُ بالذّكر أنّ الجهاتِ المُخوّلة أصلًا بتقْديم الشّكوى إليها للبتّ في الأمْر؛ هي نفسُ الجهاتِ التي أجْبرت بعضَ خرّيجات كليةِ التّمريض على (إقْرار) العملِ كـ (بيد سايد نيرس)!

أعلمُ أنّ عددَ التّمريض أقلّ مِن عددِ المَرضى بكثير، وأنّه لو عَملتْ كلّ أخصائيّة تمْريض كمُشرفة؛ فلنْ يستقيمَ الأمر، وأنّ الأخصائيّة التي تعمل كفنيّة تمريضٍ هي مع المُمارسة أكفأ بكثيرٍ من الفنيّات ممّا يحسّنُ من الرّعاية المقدّمَة للمَريض، ولكن - وبالرّغم من كلّ هذا - على الحكومةِ أن تقولها بصراحةٍ، وعلى النّقابة اتّخاذُ القرار، والبتّ في الأمر، إذا كانَ (الكلّ سواء) فلتُلغَ الجامعة أو تلغَى مدارسُ التّمريض، ولنوحّد جهودَنا في جهةٍ واحدة.



الفيروسُ السّابع عشَر

النّظرةُ الدّونيّة

زَنْجَا زَنْجَا..

كنتُ (سهرانة) بحكْم عمَلي وقتَها كإشراف (نايت شفت) ليلتها. بعد انتهائي من عملي، جلستُ في (الكاونتر) أراقبُ القسمَ، وأسهرُ على احتياجاتِ مرْضاي. كانت المُستشفى فخمةً جدًّا بمقاييس الحَداثة المَقيتة حيث يلجأ إليها الفنّانون (المشخّصاتية) ليقوموا بتمثيلِ بعضِ الأدْوار التي ستُعرض في (مسلسلات رمضان الكريم!)، وكان مِن ضمْن هذه الشريحة أناسٌ مَحجوزون كمرْضَى فعليّين، ممّا أفضى على المكان وجاهةً في أعْين مَن يَعْتبرون هذا الهُراءَ وجاهة. كان مِن ضمْن مَن أتى للمُستشفى على أساسِ صيتها وسُمعتها؛ مُسِنٌّ ليبيّ ابتُليتُ به مَحْجوزًا في القسْم الذي أشرفُ عليه. تقدّمت الساعة نحْو الرّابعة صباحًا، أرقبُ الساعة من بعيدٍ في إنْهاكٍ وتوجّسٍ، نامَ كلّ المرْضى، وبقيتُ وحدي حيث كان العجزُ في التّمريض شديدًا. فجأة؛ أنارَ إنذارُ غرفةٍ ما، نظرتُ فإذا هي غرفة اللّيبي المُسنّ، هُرعتُ إليه إذْ لا يستيقظُ رجلٌ مثله في هذا الوقت إلّا لألمٍ شديدٍ مثلًا، طرقتُ البابَ وفتحتُه، فإذا بسيادتِه مُمدّدًا على السّرير يقول بصوتٍ تعمّد أنْ يكونَ ناعمًا (وهيهات!): قصّي لي أظافري!

في الحقيقة، تمنّيتُ وقتَها لو كنتُ أملكُ قصّافةً فعلًا، بمقاسٍ أكْبر من المُعتاد، أحشرُ رأسَه بين فكّيها ثمّ أقضمُ منَ الجِهتين! لا أذكرُ تحديدًا ما قلتُ له لكنّي أذكرُ أنّني جعلتُه والجرْوَ سواء!

أوجعتُه بكلامٍ جعلَه لا يقبلُ دخولي عليه مرّة أخرى، ثمّ تقدّمت بالشّكوى فيه، ولولا تذكّري لنصيحة أحدِ زملائي كبار السنّ (المريضُ في حِمَى مرضه)؛ لكنتُ قد جررْتُه من سَريره جرًّا كما فعلَ الثوّار بالقذافي! ذاك أنّ حقّ المريض ليس حقًّا مُطلقًا، بل يتوقّف عند حقّ المُمرّضة.

تكرّر مثل هذا الموقف كثيرًا مع مُمرّضات كثيرات، ممّا عنى أنّه لم تزلِ النّظرة للمُمرّضة دونيّة، ساعدَ على اتّساع هذه النّظرة وعمقها عواملُ كثيرةٌ، ربّما لم يُذكر منها سابقًا إلّا قليل. أثبتَ لي هذا الموقف أنّ النظرةَ هذه لا تتوقّف عند حدودِ دولةٍ عربيّة معينة بل تتعدّاها إلى بلدٍ بلد، وشبرٍ شبر، وزنْجا زنْجا! بطبيعةِ الحال لا يمثّل هذا بلده بكلّ تأكيد، بل المؤكّد أنّه استثناءٌ من شعبٍ ليبيٍّ طيّب، كما أنّ مصريين كُثر استثناءٌ من شعبِنا الطيّب، المؤسف أنّ عادةَ الاستثناء أنّه أقلّ مِن القاعدة، لكنْ في النظرةِ إلى المُمرّضة فإنّ الاستثناء الخبيث قدْ زاد عن القاعدة!



الفيروسُ الثّامن عشَر

عدمُ تحْديث المعلومات..

مِرسيه!

في صباح يوم جميل، سرتُ بثقةٍ في جناحٍ داخل المستشفى ذائعِ الصّيت الذي كنتُ أعملُ به، ألقيتُ التحيةَ على زملائي وزميلاتي الذين نظروا لي باستغرابٍ حيث كنتُ قد تسلّمت العملَ منذُ يومٍ واحد فقط تقريبًا، توزّعت مهامّ القسْم علينا، وكان مِن نصيبي حجرةُ (المُخرج فلان الفلاني) قالوا لي إنّ حالته بسيطة، فقط يعاني من ارْتفاع نسبةِ السكّر في الدّم، ويُعطى جرعة (إنسولين) الآن.. فقط يا جماعة!؟ فقط يا مروة. ذهبتْ مروة، تلكُم المُمرّضة المثقفة والتي تشرعُ في تحضيرِ رسالة الماجستير، ذهبت بتؤدةٍ إلى غرفةِ المُخرج.

طرقتُ الباب ثمّ دخلت، فكّرت في الأمر قبلَ الدّخول (أقول السلام عليكم، أم صباح الخير؟) قرّرت أنْ أتمسّك بهويّتي (سأقول السلام عليكم) دخلتُ وقلتُها بثقةٍ (صباح الخير)!

لا أذكرُ هل ردّ عليّ أم لا، لكنّه كان من اللّطف أنْ أهداني قلمًا جميلًا، يبدو أنّه باهظُ الثمن! لم أكنْ قد قمتُ بأيّ عنايةٍ تمريضيّة له مِن قبل، لم أستغربِ الأمرَ كثيرًا، كنتُ أعلم أنّ (وشّي فيه القبول) ولطالما دعتْ لي أمّي الحبيبة بجُملتها الحبيبة (ربّنا يحبّب فيكِ خلقُه) كان المُخرج من هؤلاء الخلق، أهداني القلم، نظرتُ للقلم نظرةَ امْتنان، ثمّ أخذتُ أبحثُ عن (سرنجة الإنسولين) وعن زجاجة الإنسولين.. الأمرُ يسير، سأدخِل إبرةَ السّرنجة في الزجاجة، أسحبُ الوحدات المقرّرة، ثمّ أخرِجُ الإبْرة مرةً أخرى، أراعي عدمَ

وجود أي فقاعةِ هواء، ثمّ أحقنُها تحت الجلد.. بينما أفكّر في سهولةِ الأمر، وأبحثُ حولي عن السّرنجة سمعتُ (عمّو المخرج) يقول:

اطْلعي برّه، ونادي لي حدّ!

ما الخَطب؟ هل نسيتُ أن أشكرَه على القلم؟

كرّرها بحدّة فخفتُ منه، ثمّ همَمتُ بالخروج، (الغريبة أنه أخذ مني القلم تاني!) كيف يرجع رجلٌ مثل هذا في هديّته؟ سبحان الله.. الدنيا لا تهون إلّا على الفقير!

خرجتُ وناديتُ أحدَ زملائي، ثمّ لمّا دخل تطفّلتُ ودخلتُ!

كنت أريدُ معرفةَ سبب انفعالِ الرجل عليّ، وأنا التي لم أفعلْ أي شيء يغضبه!

(ده انا حتى قلت له صباح الخير!) نظرَ لي المُمرّض نظرةَ مُعاتبة، فنظرتُ له نظرةَ اسْتفهام، أخذ القلم (نفس القلم) من المَريض، ثمّ رفعَ غطاءه، فإذا بداخله إبْرة الإنسولين!

انْتابني شدّ ذهني عضلي، ولمتُ نفسي على أمْرين أوّلهما: كيفَ لا أتابع الجديدَ في المهنة؟ في ظلّ العولمةِ وتفلسفِ النّاس في كلّ شيء، ووجود (الإنترنت) في معظم البيوت، وارتفاع ثقافةِ الناس (ولو بشكلٍ سطحيّ) في بعض الأمور، كلّ هذا كان يفرضُ عليّ أن أتابعَ الجديد في المهنة، إذْ كيف أكونُ مسئولة عن (التّثقيف الصحيّ) لمريضٍ يعرف في مرضِه أكثرَ مني؟ أخذتُ ألومُ نفسي:

كيف انْشغلتُ بطلبِ العلم في التّمريض عن مُمارسة التّمْريض؟!

والأمرُ الثاني الذي لمتُ نفسي عليه: أنا وشّي ماطلعش فيه القبول!



الفيروسُ التّاسع عشَر

تغريبُ الممَرّضة.. الأنثى

(عشان الكونتاكت.. وكده!)

عندما كنتُ في المرحلةِ الثانوية الفنيّة للتمريض، سمعتُ بقرارٍ مُزلزلٍ قيل لي إنّ الذي أصدرَه هو حرمُ الرئيس مبارك (ماما سوزان)!

ذاك أنّ المصون قد أمرَتْ جميعَ المُمرّضات بارتداءِ الـ (حَرْمَلة)!

والحرملةُ: «بتاعة زرقاء اللّون، تشبهُ إلى حدٍّ كبير مَرْيلة المطبخ، ولكنّها تغطي الظَّهر كلّه أيضًا، إذا فردْتها طولًا تجدها قماشة مُستطيلة بها دائرة مفرّغة من الوسط، على المُمرّضة أن تُدخِل رأسَها في هذه الدّائرة، وبالتالي تنسدلُ هذه البتاعة من الأمام ومِن الوراء فوق زيّ المُمرّضة الأبيض النّاصع الجميل، ثمّ تُربط البتاعة بأرْبطة من الجانبين بإحكامٍ لا يسمح للمُمرّضة بمجرّد التفكير في الهروب مِن داخلها»

ـ لماذا الحَرملة يا جماعة الخير؟ قالوا: لمنع التلوث – إذن سترتَديها المُمرّضة المعرّضة للتلوث مباشرة، والباقيات يكتفينَ بالأبيض الجَميل؟ قالوا: كلّه هيلبسها.

ـ وإذا تلوّثت، لا قدّر الله، بدم أو أي سائلٍ من المريض تنتهي وظيفتها، وأخلعها والحمدُ لله؟ قالوا: ممنوع خلعها.

ـ طيب، إذا كان الأمر كذلك فستصبح الحَرملة نفسها مصدرًا للعدوى!

(صوت صرصور الحقل)

***

كانت هذه (البتاعة) غريبة الشّكل والاسم، وغبيّة الوصْف والرّسم! ولم نملك حقّ الاعتراض وقتها؛ لأنهم قالوا لنا إنّها اقتراحُ حرمِ رئيس الدولة! السؤال التأسيسي هنا (ما دخل حرم الرئيس بشأن التَّمريض أصلًا؟!).. بعد الجامعة، فوجئنا بقرارٍ يمنعُ المُمرّضات المنتقبات من العمل في المستشفيات بزعْم أنهنّ لا يجدنَ التّواصل مع المرْضَى بسببِ ارتدائهنّ للنقاب، ثمّ إنّ النقاب سينقلُ العدوى.. هكذا قالوا!

اعترضتْ بعض المُمرّضات وقتَها، واستسلمتِ البعض، بينما حاولتْ بعضُ المُمرّضات التحايلَ على القانون بارتداءِ قناع (ماسك) يقوم مقامَ النّقاب، ويظنّ مَن يراها أنها ترتديه لتقوم بعناية تمريضيّة.. ثمّ كثُر الكلامُ بعد ذلك عنْ (أهمّية التواصل) وعلى المُمرّضة أن تفعلَ كذا وترتدي كذا، حتى وصلَ الأمر ببعضِ المؤسّسات الحكوميّة أن ترفضَ أمثالي ممّن يرفضْنَ ارتداءَ بنطالٍ، وتمنعهنّ من العمل عندَها! بل واشترطتْ بعض المؤسّسات التمريضيّة (العسكرية) على المُمرّضة أنْ ترتدي زيًّا لا يمتّ لحجابِ المرأة المُسلمة بِصلة!

ولا أعلمُ في الحقيقة، ما الدّاعي لكلّ هذا؟! كيف يُنظر للمُمرّضة من قِبَل المسئولين عنها أصلًا؟ هذا السؤالُ الذي لا بدّ أن يُطرح قبْل السؤال عن سببِ نظرةِ المجتمع لها. أقول: ما الدّاعي إلى أنْ تكون المُمرّضة (على سِنْجة عشرة) حتّى (يرتاح) المريض عند التعاملِ معها؟ أيّ راحةٍ بالضبط؟ لماذا تركّز بعضُ الجهات على (جسد) المُمرّضة أولًا وقبْل كلّ شيء!؟ وبغضّ النظر عن فرضيّة النقاب أو عدم فرضيّته، ما الذي يُثبت بالفعلِ أنّ المُمرّضة المنتقبَة غيرُ قادرةٍ على التواصل، في حين أنّ سافرة الوجه

قادرةٌ جدًّا عليه!؟ كمْ رأينا ممرّضات مُنتقبات أكثرَ حنانًا واحتواءً وتواضعًا في عملها من المتبرّجة المتعجْرفة قليلة الدّين والضّمير والحجاب! ثمّ ما دخلُ كفاءة المُمرّضة بارتدائِها بنطالًا أو (ميني جيب)؟ أي كفاءةٍ تقصدون تحديدًا؟ كونوا واضِحين!

ما أراه أنّه بدأ التعاملُ مع المُمرّضة كأنثى وليسَ كموظفة، ثمّ تمّ تغريبُها وإبعادُها عن دينِها (مِن ضمن مَن تمّ تغريبهنّ من النساء) ثمّ بعد ذلك تمّ استعمال بعضهنّ كأداةٍ مروّجةٍ للمؤسسة التي تعملُ فيها، وكشيءٍ مروّحٍ عن النفس لدى بعضِ الأطبّاء!



الفيروسُ العشْرون

عدمُ تقديرها لذاتِها..

الخيارةُ والخيّرة..

ستراها طيّبة، طيّبةٌ جدًّا، تمشي في فناءِ المُستشفى مِن بعيد، ترتدي (بالطو) أبيض اللّون (يُفترض أنّه كذلك) له جيبٌ تطلّ منه رأسُ خيارة طازَجة، بينما يحتفظُ الجيب الآخر برغيفٍ دافئ سيخرجُ في الوقت المناسب، تقترب خطواتُها قليلًا منك لترى في قدميْها نعلًا غيرَ تقليدي (شبشب حمّام.. أعزّك الله) ولا بدّ أن يكونَ بأصبع، ستقتربُ خطواتها أكثر لترى طرحتَها البيضاء (كان لونها أبيض) وقد لُفّت بإحكامٍ من جهةٍ لتستقرّ في الجهة المقابلة، وحتى لا تُخلع لأيّ سببٍ غرستْ صاحبتُها فيها (دبّوس) إذا دقّقت النظرَ ستفاجأ أنه (إبرة سرنجة)!

***

كان هذا هو الشكلُ التقليدي للمُمرّضة التي تعاملت معها في بعضِ المؤسّسات الصحية، ثمّ جاء جيلُ المُمرّضات الحديث الذي نسفَ كلّ هذا الهُراء، وقرّر أن يغيّر النظرةَ بالكلية، فتجد الواحدةَ منهنّ ترتدي زيّها الأبيض المُحكَم (جدًّا) على جسدِها حتى أنّك تميّز بوضوح كلّ تفصيلة فيه! ثمّ لا تكتفي بطرحةٍ واحدة على رأسِها، بل تتفنّن في إدخال لونٍ مع لون، ولكلّ طرحة وظيفةٌ فانتبه! فطرحة تُلفّ فقط على الشّعر من الخلف (لتظنّ أنّ كلّ هذا الارتفاع هو شعرُها) ثمّ تلفّ واحدة لتغطّي هذا التحايل، تضعُ مكان الخيارة قلمًا رقيقًا، تتناوله كلّما لزم - أو لم يلزم - الأمرُ لتسلّط أنتَ ضوءَ عينيك على أظافرها الطّويلة (المبرّدة) بدقّة شديدة، والتي تتلوّن

(بالمصادفة البحْتة) مع لونِ العدَسات في عينيها! ناهيك عن أحمرِ الشّفاه والخدود، ومحدّد العين (آي لاينر) والكُحل الأزرق انتصارًا على كلّ تقاليد (كحل الحجر)!

***

نَمطان مُتباينان تمامًا للمُمرّضة (ولكلّ قاعدة شواذ).. نَمطان صارخان بالنفسيّة الانْهزامية!

ترى الأولى أنّها أقلّ مِن أنْ يُهتمّ بالنظر لها فلا تهتمّ بنفسِها، وترى الثّانيةُ أنّها أقلّ من أن يُنظر لها فتهتمّ أكثر من اللّازم بإظهار أنوثتِها وجَمالها!

هزيمةٌ نفسيّة مُسيطرة على كلّ جزءٍ من عقليْهما.. فلا حالَ الأولى مُرْضٍ، ولا حال الثّانية بأفضل مِن الأولى..!

كنتُ أدرّس للفتياتِ حينما قلتُ لهم (أنتنّ عندي لستنّ أقلّ من الطبيبات، لكن هي تصرفاتكنّ التي تثبتُ أنكنّ أقلّ منهنّ.. حاولي أنْ تتعاملي مع نفسك ومعَ الناس على أنّك طبيبة.. قبل النّزول إلى المُستشفى انظري لنفسِك وملبسكِ وسلي نفسك: إذا كنتُ طبيبة، هل كأنت سأفعلُ ذلك؟)

إحداهنّ استمعتْ إلى هذه النصيحة، تقول (في ناس نادتني: يا دكتور).. كنتُ أتمنّى ألّا تتمّ المُقارنة بأيّ مهنةٍ أخرى، فالأفضلُ أن تقتنع المُمرّضة بنفسها لذاتِها دونَ مقارنة، ولكني وجدتُه حلًّا مؤقتًا لهذه المشكلة، ولا شكّ أنّ هذا الحلّ ربما يعمّق حالة (الانْهزامية) أكثرَ في عقل المُمرّضة الباطن، لكنّ أمامَنا شوطٌ كبير إلى أنْ نصل إلى قناعةِ المُمرّضة بنفسها (كمُمرّضة).



الفيروسُ الحادي والعشْرون

قسوةُ القلبِ مع الزّمن

(شوية كده..)

نتحدّث كثيرًا عن انْعدام الضميرِ عند بعض المُمرّضات، ولم نتحدّث ولو قليلًا عن السبب. ما سببُ انعدام الضّمير عندها؟ أو بالأحْرى، كيف ينعدمُ ضميرُها؟ أتدريجيًّا أم فجأة؟ على مرور عمرِها الوظيفي، أمْ من بدايتِه؟ أيزدادُ انْعدام الضمير أمْ يثبتُ عند درجةٍ مُعينة؟ هل تُعتبر كلّ حالات الإهمال التي نراها وتتسبّب فيها بعضُ المُمرّضات، هل تُعتبر في الإساس انْعدامَ ضمير، أمْ قسوة قلب؟ وما الفارقُ بينهما؟ وما الذي يسبقُ الآخر؟ وما الذي يترتّب على الثاني؟ كلّ هذه أسئلة لا بدّ مِن متخصّص نفسيّ واجتماعيّ لتلقّيها، ثمّ تحليلها، ثمّ الإجابة عليها.

***

ذاتَ مساء، كنتُ أمرّ على أحدِ أقسام المستشفى، ففوجئتُ بمريضةٍ قد توقّف تنقيطُ المحلول في يدها، ممّا جعلَ زجاجة المحلول الوريدي (محلّك سرّ) فلمّا اقتربتُ قالت المَريضة (دي من الظهر يا أبله) ولمّا اقتربتُ أكثرَ وجدتُ ما توقّعته صحيحًا، وهو تلفٌ في (الكانيولا) التي توصّل المحلول إلى الوريد، وخروجها من مسارها داخل الجسم! حوّلت المُمرّضة للتحقيق.

***

ذاتَ يوم، مرّت طبيبة – كانت تزورُ أمّها المحجوزة في قسْم العناية المركزة قدرًا – على مريضةٍ كان إنذارُ الجهاز الموصل بها (ألارم خاص بالمونيتور) قد أصدرَ صوتًا ممّا دلّ على وجود خللٍ ما، تقول الطبيبة: وجدتُ ضغطَ دم المريضة مرتفعًا جدًّا، ثمّ علمت أنَّ الدواء الذي يصلُ إليها (تراي بي على ما أذكُر) قد نفد، فنبّهت المُمرّضة لذلك، ثمّ مرّ وقتٌ طويل لتدخلَ الطبيبة تطمئنّ على والدتِها لترى أنّ حالة المريضةِ المجاورة لم تزلْ كما هي، وأنّ الدواء المَطلوب لم يُعط! فلمّا نبّهت المُمرّضة مرةً أخرى توجّهت المُمرّضة إلى المريضةِ لتعطيها (أمبول بوتاسيوم) على أنّه أمبول آخر، فدفعته دفعةً واحدة – وكان ينبغي أنْ يؤخذ ببطء – ممّا أدّى إلى ما يسمّى (تاكي كارديا)، أو سرعة ضرباتِ القلب الذي أدّى بعد ذلك إلى (آررست) أو توقّف القلب، وماتتِ المَريضة!

***

ذاتَ ليلة، سمعتُ بكاءَ طفلةٍ صغيرة تحاول أمّها إسكاتَها ولم تفلح في ذلك حتى طالَ الوقت وطال بكاؤها، سألتُ الأمّ عن الأمر، فقالت إنّها مُذ ركّبت لها المُمرّضة (كانيولا) لم تتوقّف عنِ البكاء، فتّشنا في الطفلةِ المسكينة عن السببِ حتى وقعَ بصرُنا على قفّاز (جوانتي) بلاستيك كانت المُمرّضة قد ربطتْه حوْل ذراعِها لتصل إلى الوريد، ثمّ نسيَته!

***

أمثلةٌ كثيرة منَ الإهمال غيرِ المتعمّد، وأمثلة أكثرَ من الإهْمال المقصود، يؤرّقني فعلًا أنْ تتّسم المُمرّضة بقسوةِ القلب، وهي التي أطْلقوا عليها «ملاك الرحمة»! غريبٌ أنْ يكون لسانُ حالها (شوية كده) إذا نوديَت للرّعاية التمريضيّة، كلّ عملٍ يؤدي إلى رتابةٍ كلّما زادت واستمرّت مُمارسته، إلّا التمريض فإنّه ينبغي أن يتجدّد حبّ المُمرّضة له مع كلّ روحٍ جديدة تتعامل معها.



الفيروسُ الثّاني والعشْرون

قلّةُ الحياء..

كحيلةُ العيْن..

كانت زميلةً لي في الثانوية الفنيّة للتّمريض، وكانت مِن المُشتهرات بحيائها الشديدِ في المدرسة، كانت ذاتَ فطرةٍ سليمة، على خُلُق، وكنتُ أحبّها حبًّا شديدًا، أذكر أنّني سمعتُ فتاةً تكْبرنا سنًّا تقولُ عنها (فلانة بتحطّ كُحل.. مش مؤدّبة) فدافعتُ عن فلانةٍ هذه قائلة إنّ عينَها (متكحّلة ربّاني) (انظر إلى أيّ مدى كان مقياسُ الأدب عنْ زميلتنا الثالثة، ثمّ انظرْ عن أيّ شيءٍ كان دفاعي) كنّا في الرّيف على الفطرة، لا نفهمُ جلّ الأمور، وإنْ فهمنا بعضَها لا نعترفُ به، كان الحياءُ سمتَنا حتى وإنْ لم يكن مِن باب الدّين؛ فمِن باب الأصول.

مرّت الأيامُ وافترقنا، أكملتُ دراستي واكتفتْ هي بالدّبلوم ثمّ الزواج، أنجبت ولدًا جميلًا سمّته «عمرو»، ثمّ أسرّت لي عندما قابلتُها بعدَ سنوات أنّها لا تحبّ أبا عمرو!

لاحظتُ في مقابلتي لها أنّها أمستْ أكثرَ انفتاحًا (أو جرأة) مِن ذي قبل، كانت ضحكتُها عالية، لا تداري فاها عند الضّحك مثلما كانت عادتُها في الماضي، انتهتْ مقابلتي لها لنتقابل مرّة أخرى بعد سنواتٍ، كنتُ أزور مَريضة في القسْم الذي تعمل هي به، سلمتُ عليها ثمّ ذهبتُ للمَريضة، واحتجتُ للمَريضة بعضَ القطن؛ فذهبتُ للـ (المخزن) الذي كان به الآلات والأدوات والمستلزمات الطبيّة، ففوجئتُ بزميلتي هذه التي أرْهقها العملُ قد اتّكأت على قدمِ صديقةٍ لها، بينما يسامرُهما أحدُ الموظفين!

ذهلتُ حتى أنّي عجزتُ عن التعليق، تركتُ القسْمَ والمُستشفى أضربُ أخماسًا بأسْداس، ولمّا قرّرتُ كتابة هذا الكتاب سألتُ بعضَ مَن أثقُ بفكرهنّ من المُمرّضات والطبيبات عمّا يريْنه من عيوبِ مهْنة التّمريض، فقلنَ لي مِن ضمن ما ذكرن (قلّة الحياء)..

ما السببُ إذًا في انتشار هذه الظاهرة؟ ما السببُ للضحك بصوتٍ عالٍ، والحديث فيمَ لا يصحّ للمرأة الحديث فيه بين بناتِ جنسها، فضلًا عن أنْ يكون بينها وبين زملائها من الرّجال؟! ما السببُ في المحاولة المسْتمية لدى بعضهنّ للفتِ أنظار المرْضى أو مرافقيهم أو المُمرّضين أو الأطباء؟ ما السببُ لارتداء كعبٍ عالٍ والتجمّل بمساحيق تُخرجها عن حدودِ الأدب، بل وحتّى عن حدودِ فهْم ذوقيّات التجمّل؟ ما السببُ وراء قَبولِ بعض المُمرّضات للمزاح مع الرّجال وربّما وصل الأمرُ إلى المزاح باليد؟!

ربّما كان السببُ قلّةَ الوازع الديني وسوء التربية؟ ربّما كان السبب (النفسيّة الانهزاميّة)؟ ربّما كان صِغَر سنّهنّ وسهولة الضّحك على عقولهنّ؟ ربّما كان السببُ ابتزازَ بعض المَرْضى أو بعض الزّملاء وبعض الأطبّاء لهنّ؟ ربّما كان الفشل في زيجاتهنّ؟ ربّما كان كلّ ذلك مجتمعًا؟ الأمرُ من الضرورة بشكلٍ يجعلُنا لا نتغافل عنه، وإنْ كانت الجهاتُ المختصّة تمنعُ التستّر بالحِجاب وبالنّقاب في بعض المؤسّسات بحجّة (صعوبة التواصل بين المُمرّضة وبين المرْضى والزّملاء)، فعلَى هذه الجهاتِ أيضًا أن تمنعَ الأسباب التي جعلتِ التّواصل بين المُمرّضة والمرضى والزّملاء زائدًا عن حدّ الدّين والعادات والفطرة والمَقبول!



الفيروسُ الثّالثُ والعشْرون

طمسُ الهويّة..

(ليه «واي» مش «لماذا»؟)

ذاتَ يوم، وتحديدًا في المعهدِ الفنّي الصحّي، سألتُ أحدَ الأطباء الذين كانوا يحاضرون لنا الموادّ الطبيّة، وكان طبيبًا شيخًا كبيرًا، طيّب القلب، وجميلَ الشرح، ورحْبَ الصدر، فسألته وأنا أشعرُ بمرارةٍ لِما رأيتُ من انتشار اللّغتين الإنجليزية واللّاتينية في كتبِنا، بينما لا ندرسُ إلّا مادةً واحدة تقريبًا باللّغة العربية من أصلِ عشر موادّ أو أكثر كلّها بالأعْجميّة، فقلت له (يا دكتور، إحْنا ليه مابندرسش بالعربي؟) فأجاب عليّ إجابةً جامعة مانعةً مرّة كالعلقم؛ حيث قال (لمّا الطبّ يتعرّب يبقى ندرّس بالعربي). ثمّ أكمل المحاضرةَ لأكمل أنا التفكيرَ في تاريخ الطبّ الذي تعبَ فيه أجدادُنا، ثمّ ضيّعناه!

الكارثةُ أننا مع الاستمرار نجدُ أن الإنجليزية أيْسر لعقولنا من العربية، لا لنقصٍ في لغة القرآن بلْ لنقصٍ في عقولنا التي فضّلت لغةً أعجمية على لغة القرآن. كان الطبيب محقًّا في إجابته، إذ لو درستُ كلّ المواد بالعربية، ثمّ تخرّجت لأجدَ التشخيص أجنبيًّا والعلاج أجنبيًّا لعانيتُ من الازْدواجية واضطررتُ للترجمة أولًا، ثمّ فهْم ما ترجمته، لكن إذا أردْنا أن ندرس الطبّ والتمريض بالعربية؛ فعلينا أولًا أن نوجِد علاجًا عربيًّا..

ومِن نافلة القول أنّ عنوان الكتاب كان لا بدّ أن يُكتب بالعربية، وكان لا بدّ لبعض العناوين الجانبيةِ العاميّة منها والأعجمية أن تُكتب بالعربية، لكنّي قصدتُ التّركيز على ظاهرةٍ لا بدّ من حلّها من القاع وليس مِن القمّة، ومن الجذْر قبل أن ننظرَ للفرع.

ابن سينا، ابن الهيثم، ابن النفيس، ابن التلميذ، يعقوب بن إسحاق الكندي، ابن رشد، ابن القف، ابن سقلاب، ابن توما الإدريسي، ابن ملكا البغدادي، ابن الخطيب؛ كلّ هؤلاء كانوا علماء في الطبّ، وكانت إسهاماتُ المسلمين في مجال الصحّة هي أعظم الإسْهامات على الإطلاق؛ حيث كانوا أَوَّل مَن أسّس المُستشفيات في العالم، بل إنّهم سبقوا غيرَهم في ذلك الأمْر بأكثرَ من تسعةِ قرون؛ فقد أُسِّس أوَّل مُستشفى إسلامي في عهدِ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وكانَ هذا المستشفى متخصِّصًا في علاج مرَض الجُذام.

كانت السيدة "رفيدة الأنصارية" - رضي الله عنها - أسبقَ المُمرّضات في العالم، وكانت مُمرّضة على مستوًى عالٍ من الكفاءة، حتى أنّها مرَّضَت جيشًا وحدَها!

انتهتْ دراستي في المعهدِ والجامعة والماجستير، ولم يزلِ السؤالُ قائمًا، ليس لطبيبٍ وحده بل لكلّ مسئول، لماذا أمْسينا تابعين في مجالنا للغرب حتى وصلَ بنا الأمرُ أن ننتظر ما يُمليه علينا الصّليب الأحمر ومنظمةُ الصحّة العالمية (التي نُمثّل فيها على اسْتحياء)، ثمّ ننفّذه دونَ جدال؟

وأخيرًا..
Burnout!

قبلَ الشّروعِ في بعض الجَرعات العِلاجية للفيْروسات التي رصدْناها كان لا بدّ مِن باب الأمانة أنْ أنقل نتيجةَ بحثي الذي تناولتُه في مرحلة الماجستير، والذي كانَ عنوانُه بالإنجليزية «Effect of organizational climate on burnout of nurse educators»

ومَعناه بالعربية (تأثيرُ مناخ العملِ على الاحْتراق الوظيفي عند معلّمات التّمريض)، وتناول هذا البحثُ أثرَ بيئة العمل - بكلّ ما تحتويه مِن أشياء ماديّة ومعنوية - في زيادةٍ أو نقصان الاحتراقِ الوظيفي (الذي يُشبه الاكتئابَ في بعض علاماته)، وقد كانت العينةُ التي أجْري عليها البحثُ مجموعةً من المدرسات العاملات في مدارس التّمريض في إحدى محافظات مصر، وقد أظهرتْ نتائجُ البحث أنّ المُمرّضة (على اعتبار أنّ مدرّسة التّمريض هي بالأساس مُمرّضة) تتعرّض بالفعل لضغوطٍ نفسيّة كبيرة ممّا يؤثّر بالسلب بشكلٍ مُباشر على المَريض (في حالة عدم تحكّم المُمرّضة في انْفعالاتها)، وقد كانتْ مِن هذه العوامل مثلًا الحالةُ الاجتماعية والماديّة، وعدد الأولاد، والسنّ، وسنوات الخبرة، والمؤهّل الدراسي، وما إلى ذلك؛ لتجدَ على سبيل المثال أنّ المُمرّضة الحاصلةَ على مؤهّل متوسط، والتي تعاني من الطّلاق مع وجود أبناء، وضَعف

المرتب؛ أكثرُ عرضةً للضغوطِ من المُمرّضة الحاصلة على مؤهّل عالٍ ومستقرّة، ولديها مرتبٌ كافٍ، وهكذا.. وبالتالي، فإنّ المُمرّضة في الحالةِ الأولى إنْ لم تتحكّم في انْفعالاتها؛ ستنقلُ ضغطَها الداخلي حتمًا إلى أقرب (وأضعف) شخصٍ يقابلها (وهو المريض)!

ما قصدتُه من تسليطِ الضّوء على هذه الجزئيّة أنّ المُمرّضة في الأول والأخير إنسانةٌ ربما تُعذَر في بعضِ ما يُصدر منها، أو على الأقلّ تحتاج إلى مَن يدرس حالتها بشكلٍ أكاديمي جادّ، ثمّ يخرجُ لنا بالتّوصيات التي نأملُ أن تجدَ آذانًا مُصغية، وليس أدراجًا للأبحاثِ مفتوحة!

العلاج



التّربية..

ارْحَمهُما..

تحدّث العلمُ الحديثُ عن القلبِ ذاكرًا عددَ غُرفه وصمّاماته، لكنّه لم يتحدّث عن وجودِ صِمامين آخريْن هما «أبويا» «أمّي»، ولولا أنّ الكتابَ متخصّص؛ لجعلتُ كلّ فصولِه عنهما!

لنْ أسهِبَ في تسليطِ الضّوء على فضْلهما عليّ (كمُمرّضةٍ) بعد فضلِ ربّنا سُبحانه وبحمْده، بل سأختصرُ لأقول: يكفيني من أمّي (بارك الله في عمرها) أن كانت تُسمِعني القرآن الكريم (دونَ أن تقصد) عندما كانت تفتحُ المذياع على إذاعةِ القرآن الكريم (حينما كانت إذاعةً تحترِم المستمعَ، ويحترمها المُستمعُ) تفتحُها صباحًا حتى أستمعَ إلى قرآن (ستّة ونُص) ثمّ ضحًى لأستمع إلى (الختْمة المرتّلة) ثمّ عصرًا لأستمع إلى (قرآن العصر) ثمّ ويكأنّ أبي قد عَلِم بحاجتي إلى تفسيرِ ما سمعتُه طوالَ الأسبوع فيُتْحفني بتفسيرِ القرآن حيث (خواطر الشيخ الشعراوي) كلّ جمعة، حتى كانت (الحالةُ القرآنية) التي عايشتُها وعاشَتني هي المَعينَ الأوّل والرئيسي والمستمرّ في كلّ الأزمات أو المواقف التي تعرّضت لها في حياتي المهنيّة!

هذا، وقد كان الكريمان الحبيبان لم ينَالا قسطًا وافرًا من التعليم، فما بالُ مَن حصلا على شهاداتٍ عليا في مجالات مختلفة، ثمّ أنجبا ولدًا أو بنتًا كانت مهنةُ التّمريض في انتظاره، فكانت الحسرةُ في انتظار مريضِه؟!

***

من خلال عملي كمديرةِ مدرسة تمريض، اضطررتُ في أحيان كثيرةٍ لاسْتدعاء أولياء الأمور بسببِ تعدّيات سلوكية أو أخلاقية أو مهنيّة قد ارتكبَها أولادُهم، ممّا فاجأني فعلًا وأصابني بالحسْرة الحقيقيّة؛ أنّ وليّ الأمر نفسَه يفتقد - بدرجةٍ كبيرةٍ - المعرفةَ الحقيقيّة والتطبيق الفعليّ للأخلاق والدّين والسلوك!

ذاتَ مرّة، عرفتُ أنّ أحدَ الطلاب قام بالتدخين، فقرّرتُ استدعاءَ وليّ أمره لمناقشة الأمرِ الذي ابتلي ابنُه به، فدخل الأبُ المكتبَ وفي يدِه (سيجار)؛ ففقدتُ الأملَ في التغْيير.

***

ذاتَ يوم، استدعتْ زميلتي (مديرة مدرسة الفتيات الثانوية الفنيّة للتمريض) وليّ أمر طالبةٍ قد أتتْ إلى المدرسة بعدما وضعتْ على وجْهها مساحيق التجميل وتنمّصت، فلم يكنْ مِن والدها إلا أنِ اشتكى مديرةَ المدرسة!

***

طالبة لم تُحسن الصلاةَ فلمّا نصحتْها المدرّسة بأنْ تصلي على الأقلّ كما ترى والديْها؛ قالت: أمّي وأبي لا يُصلّيان!

***

أمثلةٌ كثيرة ربّما تبدو بسيطة، لكنّ تراكمَها وتكرارَها واتساعَها في بعض الأحيان يدلّ دلالةً قاطعة على فُقدان النموذج والقدوة في المَحْضن الأوّل لطالبِ أو طالبة التّمريض التي ستصبح بعدَ سنوات قليلة مُمرّضة يجبُ عليها أن تتّقي الله (الذي لا تعرفُه حقّ المعرفة) في مريضِها!

إذا لم نُمسك الخيطَ من طرفِه، ونحاول حلّ المشكلةِ الدينية والتربوية عند المُمرّضة من جذورها؛ فإنّنا سنكون كمَن أمسك بقِربةٍ يجتهدُ في نفخِها متناسيًا تمامًا الخرقَ الكبير الذي فيها.



البيئةُ المحيطة..

Bottom of Form

المَحْضن التّربوي

كنت أخافُ هذا الكائن الـ «مُخيف» المُسمّى بـ «جماعة الإخوان المسلمون»، وكنتُ أتخيّلهم شخصًا غليظَ الشفاه، كثّ الحاجبيْن، فظّ القلب، بشعَ ملامحِ الوجه، ذا لحيةٍ غير مُهذّبة، سينظر إليّ من بعيد ثمّ ينفردُ بي فيقتُلني!!

"الشيخ عبد العال" كان شيخِي في الكتّاب، حفظتُ على يديه بعضَ سور القرآن وأسماء الله الحسنى، أحببتُ معه القرآنَ الكريم، كان يهتمّ جدًّا بخطّي فأحببتُ معه اللّغة وضبطها.

"أبله رضا، وأبله ميرفت".. مُعلمتان تخرّجتا من "دبلوم المعلمين" تعلّمت منهما في المرحلةِ الابتدائية صنوفَ الخير وجميلَ الأخلاق، أحببتُهما بشدّة، بكيتُ لفراقهما بكاءَ مَن يفارق أمَّه!

"أبله فكيهة" معلّمتي في الإعدادية، أحببتُها في الله، تعلّمت منها.

في قسْم الأشعة بالمستشفى، أرى الأستاذ "أحمد" يعاملُ المرضى معاملةً فوق الحسنة،

على مدار ثلاثِ سنوات (دبلوم تمريض) أحترمُ أستاذ أحمد.. أقلّدُه في غضّ البصر.. يهدي إليّ كتابًا ذا غلافٍ أبيض عليه زخرفةٌ خضراء.. يعلوه عنوان "ففرّوا إلى الله".

في المعهد الفني الصّحي، أقابل "فاطمة"، أغارُ من خِمارها وأخلاقها، أقلّدها، أحبّها.

في كلية التمريض، أجدُ جمعًا مَهولًا من الشباب يسيرُ ككتلةٍ واحدة، خلفهم مساحةٌ فارغة تتوسّطها لافتةٌ كبيرة يمسكُ بطرفيها شابّان من جهتين مُتقابلتيْن، وراءهما فتياتٌ يترجّلن بتؤدة، أبكي، أقتربُ منهنّ، أحبّهن، ثمّ أكونُ منهنّ!

في مسيرة، أقف فيها ضدّ مُرشح الحزبِ الوطني، أجدُ أناسًا يُشبهونني فيما أنادي به..

ـ مروة.. ازيّك؟!

مين! أبله ميرفت!

تعالي يا رضا.. فاكرة مين دي؟ مروة.. كانت طالبة عندنا في الابتدائي.

أبله فكيهة.. إزيّ حضرتك؟

على بُعدٍ أراهما في صفوفِ الرجال؛ الشيخ عبد العال والأستاذ أحمد!

أكتشف أنّ كلهم أصحابُ فضل، وأنهم (جماعة الإخوان المسلمون)!

لا شكّ أنّ مثل هذه البيئة الممتدّة إلى ما بعد ما يطلقون عليه (سنّ المراهقة) كانت عاملًا كبيرًا في تشكيل المُمرّضة فيّ، ولا شكّ أنّ مدرسة الإخوان التربويّة هي تجربةٌ جديرة بالاحترام والتّكرار، ليس منَ الواجب على كلّ ممرضةٍ أن تنتمي لها لكي تُهذّب سلوكياتها مع المَريض، لكنْ من

المؤكّد أنه لو تمّ تعليم المُمرّضة مادّة السلوك (أخلاقيات المُمرّضة) أو ما نسمّيه (نيرسنج إيثكس)، لا شكّ أنّ التربية السلوكيّة الحقيقية ستوفّر علينا جهدًا ووقتًا كبيرًا في تعليم المُمرّضة ممّا سيعود على المريض بالإيجاب.

بدلًا من رفع مادّة الدّين من المجموع؛ علينا أنْ نوليها اهتمامًا خاصًّا في كلّ المدارس عامّة، وفي مدرسةٍ ستُخرج مَن ستتعاملُ مع روح الإنسان؛ حيث لا رقيب إلّا ربّ الإنسان خاصّة.



الفنّ

الحِساب..

هناك، أمام شاشة الرائي (التّلفاز)، جلستُ مشْدوهة، يعجبني رداؤها الأبيض، ورشاقة حركتِها، وخفّة ظلّها وابتسامتها، كانت ممثلةً مميّزة وقتها، قامتْ في مسلسل "الحساب" بدوْر البطلة، وكانت - لِلمُصادفة - مُمرّضة، أعجبتني يقظة ضميرها التي نجحَ المخرج في إظْهارها بدقّة، أعجبتني ثقتها بنفسِها، تمرّدها، أعجبني في تمثيلها كلُّ شيء، اقتنعتُ - وأنا الطفلةُ وقتَها - بوظيفةِ المُمرّضة؛ لأنّها نالت إعجابي، وأحببتُ أن أكونَ مثلها.

وما نال إعجابي أيضًا (وهذا بيني وبينك؛ فلا تذعْه) أنّ المريض - وكان ممثلًا كبيرًا في السنّ - الذي اهْتمّت به المُمرّضة في المسلسل؛ قد توفّي في إحدى الحلقات بعدما كتبَ لها قبل موته كلَّ ما يملك!

على أيّة حال، نجحتِ الممثلة في إبراز صورةٍ مغايرة للمُمرّضة، صورة جديرة بالاحترام، حبّذا لو تكرّر مثلها..

E.R

ذاتَ ليلة، شاهدتُ تمثيليةً أجنبية أطلق عليها مؤلفُها (إي آر) وكانت اختصارًا لكلمَتي "غرفة الطوارئ" بالأعجمية، استهواني المسلسلُ جدًّا، ذاك أنّي رأيتُ فيه كيف تفكّر المُمرّضة، وكيف تحترم ذاتَها، وكيف يحترمُها المجتمعُ الصغير "العاملون في المستشفى، والمرضى» والمجتمعُ الكبير في خارجه. نجح المخرجُ في التصوير، ونجح طاقمُ العمل كلّه في إيصال ما أرادوا، كانت إحدى المُمرّضات ذاتَ بشرةٍ سمراء (ويْكأن ذلك كان مقصودًا لذاته؛ ردًّا على عنصريّة بعض الأمريكان ضدّ السّود) وكانت غايةً في الثقافة والاحْتواء، والفهْم، والرّزانة، ومراعاة الضمير.. (ويْكأنّ ذاك أيضًا كان مقصودًا؛ ردًّا على عنصريّة بعض أفراد المجتمع ضدّ المُمرّضات).

لم أنسَ إلى الآن بعضَ المشاهد التي كانت المُمرّضة تستقبلُ فيها مريضًا في غرفة الطوارئ، كيف تتّسم بالثّبات الانفعالي والسّرعة في آنٍ واحد، كيف تستحثّ زملاءها على إنقاذِ المريض، كيف تُطَمْئن أقرباءَه في نفس الوقت التي تمتلئ هي بالقلقِ على مريضها، كيف تساعد فريقَ العمل في أدقّ التفاصيل، كيف تعدّ مثلًا (وان تو ثري) لينتفضَ زملاؤها فجأة، ويحملوا المريضَ في نفس اللّحظة، كيف يهَرْول الطبيب لإعطاءِ المريض بعضَ الحقن فتخبره بخفّةٍ وسرعةِ بديهة (أعطيتُه كذا، وكذا، وكذا)!

احترمتُ دورَ المُمرّضة جدًّا، نجح (إي آر) في أنْ يبهرني بدور المُمرّضة حتى أنّني تمنّيتُ للمرة الثانية أن أصبحَ في المستقبل القريبِ مُمرّضة.

الجرعةُ الرّابعة

خذّها..

تغذية

في الصفّ الثاني في المرحلة الثانوية، جاء إلينا - في المدرسةِ الثانوية الفنيّة للتّمريض - أحدُ المدرّسين ليدرّس لنا مادّة (التّغذية)، وكانت المادةُ مهمّة جدًّا بالنسبة لنا كمُمرّضات حيث تعطينا فكرةً عن أنواع الطعام وعناصرِه الغذائية والكميّة المناسبة للجسم من كلّ عنصرٍ، وتقسيم الفئات العمريّة حسب احتياجاتها لهذه العناصر.

كانت المادّة سلسةً ويسيرةَ الفهم، وكان الأستاذ "أحمد" متمكّنًا من شرحِها لنا، كنتُ في هذا التّوقيت أبحثُ عن إجاباتٍ لأسئلة لا أفهم جلّها، ويكأنّي أجهلُ نفسي، وكنتُ قد سمعتُ كثيرًا عن فلسطين، والقدس، والانتفاضة؛ ولكنّي لا أعلم كيف يكونُ لي دورٌ فيما يحدث حولي.

ذاتَ صباح، جاءنا الأستاذ "أحمد" ليحاضرنا في مادّة التّغذية، ثمّ لفت أنظارنا - بذكاءٍ - لِما يحدثُ في فلسطين، ثمّ عرّج بالحديثِ على الانتفاضة، وما قام به المجرم «آرئيل شارون"، في هذه اللّحظات كنتُ أصارع سؤالًا من سؤالاتي (ما دوْري حيالَ فلسطين؟) فقال المعلّم الذي لم يسمعْني بقدْر ما توقّع منّي مثلَ هذا السؤال (لعلّ واحدة فيكم بتسأل: أنا إيه دوري؟) ثمّ تابع (دورك إنّك تبدئي بنفسك، صلاتك، حجابك...) وقال كلامًا آخرَ لا أذكره.

عند نطقِه لكلمة (حجابك) نظرتُ إلى "هدى" في المقعدِ المقابل، وابتسمتُ لها فبادلتني الابتسامة، وذاك أنّنا كنّا نتناقش قبلَ المحاضرة

في ارتدائنا للـ (خمار)، فجاء كلام أستاذ "أحمد" موافقًا لهَوانا، فاتّفقنا بابتسامتيْنا على القيام بما أرَدْناه.

غذّى (أستاذ أحمد) روحيْنا وقلبيْنا بنصائحِه، فتأثّرنا طالبتيْن، وأثّرنا ممرضتيْن، وتمنّينا لو ذاقت (تغذيتَه) وتغذيةَ كلّ مُخلصٍ جميعُ المُمرّضات.



ثقْ بها..

وردة..

جلستُ يومَها في قسْم الاستقبال والطوارئ، وبي همٌّ حسبتُه وقتَها شديدًا!

ـ أحبُّ التمريض لكني، على الرغم من ذلك، أشعر بالفشل يا وَرْدَة!

– ليه بس يا مروة، إنتِ شاطرة والله.

– يعني سنة أولى كلها عدّت مِن غير ما ادّي حُقن وريد خالص، وآدي سنة تانية هتخلص أهي وانا لحد دلوقت خايفة، إيديا بترجف كده والوريد بيوْرم على طول!

كانت هذه هي مشكلتي الكبرى، وكنتُ بالفعل أكرهُ يومي بسببِ إحساس الفشل المُلازم لي خاصةً إذا رأيتُ زميلةً تصغرني أكثرَ مهارةٍ مني في (حقن الوريد)، لم تُشعرني «وردة» بـ «تفاهة» مُشكلتي، لم تُهملني، لم تقلّل من شأني وقد أطْلعتها على "ضعفي" لم تنفُر، لم تسخَر، لم تنسَ، لم تتجاهلني بل طلبتْ منّي طلبًا أعددتُه يومَها (بُطوليًّا)..

– مروة، هاتي سرنجة ٣سم، ومحلول ملح وتعالي.

جهّزتُ ما طلبته "وردة" منّي.. سحبتْ ٢سم ملح، وأعطتْ لي (السرنجة)، ثمّ مدّت لي ذراعها، وقالت مبتسمة:

– إديني الحقنة دي..

– وردة! مش هينفع.

- يا بتّ عادي، ده محلول ملح.

- بس دراعك هيورم!

- لا، هتديهالي كويس جدًّا.. يلّا بس.

جرّأتني ابتسامتُها، وثقتها فيَّ، أدخلتُ الإبرة في ذراعها، لم تتألم! نجحتُ أخيرًا!

- شايفه بقى الموضوع سهل ازّاي؟

***

سؤال "وردة" أجبتُه أمس بدعاءٍ لها، وقد فرّقتنا السنون..

أمس، قالت لي زوجة عمّي: الله يسترك يا بنتي، إيدك خفيفة، والله ما حسّيت بيها!

إطراءٌ اعْتدتُ سماعَه بفضل الله، وأشعر بسعادةٍ كبيرة تغمرني في كلّ دعوة أسمعها من المرضى.

***

تُرى، كم دعاء ناصفتْنِيه "وردة"!؟ كم حسنةٍ تمسي وتصبح في ميزانها؟

كم خطوةٍ أخطوها في المَشفى أو في القرية - بمُنتهى الثّقة - تخْطوها معي "وردة"، وابتسامة وردة، وتشجيع وردة، وثقة وردة، وتحمّل وردة، وعدم سخرية وردة، وعدم تجاهل وردة، وصبْر وردة، وعدم نفور وردة، وإطراء وردة!؟

ماذا لو وثقَ المجتمعُ بالمُمرّضةِ ثقةً (ورديّة)؟ تُرى.. إلى أيّ مدى سيكون الأثر؟



أثّر فيها..

فَفرّوا إلى الله..

تكرّر منّي توجيهُ الأسئلة له، ثمّ أخْبرني أنه موجودٌ بقسْم الأشعة كلّ يوم (اثنين) في حالة إذا ما أحببتُ معرفةَ الجديد عنْ ديني وأمّتي منه؛ وكان هذا بناءً على طلبي وكثرةِ أسئلتي واسْتطراداتي، فكنتُ أذهبُ إلى هناك في الموعدِ المحدّد في رفقةِ صاحبتيّ (هدى) و(نفيسة) أسأله فيجيب، وأستطردُ فيستفيض، وأدافع عن (مبارك) فيسخر (ربّنا يخلّي لنا الحكومة) فيستفزّني، فأقرأ أكثر، فأسأل أكثر.. وهكذا حتى عرفتُ منه أشياءً كثيرة..

ذاتَ يومٍ، ذهبتُ للسؤال عن أشعّة مَريضة، فوجدتُه قد أحضرَ لي كتابًا – وكانتِ المرةُ الأولى في حياتي التي يُهدَى إليّ فيها كتاب – وقال لي: اقرئي هذا الكتاب جيدًا، كان اسمُ الكتاب (ففرّوا إلى الله..) قرأتُه وارتبطتُ به، زاد وقاري أكثر، وزادَ حيائي، وشعرتُ وكأنّني أتشكّل من جديد.. في هذه الأثناء، دخل الملعونُ (شارون) المسجدَ الأقصى المبارك بحذائه، فانتفضتْ فلسطين، وهُرعتُ إليه الذي كانَ ملاذي لمعرفة كلّ جديد، وقلتُ له بحماسةٍ شديدة أضحكتْه (نفسي أروح فلسطين!) وكنتُ ألحّ عليه في الطلب، وكأنّه مَن يملك زمامَ أمر الجهاد.. ابتسم، أخبرتُه بشعوري بحبّ الذّهاب لفلسطين، كان حبّي للقضية صادقًا.. قال لي (حنانيك.. الحماسُ جميل، لكنّ التّهورَ ليس كذلك) ثمّ استشهدَ بقول الرجل الذي أحببتُ مأثوراتِه، فقال (قال الإمام حسن البنا: لتجدنّ أشدّ الناس حماسًا هم أشدّهم جزعًا وخوفًا).. كيف عرف أنني أحبّ هذا

الرّجل!؟ كانت آخرُ لقاءاتنا أنْ رتبتُ معه (مسيرة) أقودُ فيها زميلاتي نهتفُ لفلسطين ونوزّع على المحالّ التجارية منشورًا بمقاطعة البضائع (اليهودية والأمريكية)، وقد أعدّ لي المنشور بنفسه، وقرأه عليّ، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم.. {كتبَ الله لأغلبنّ أنا ورُسُلي.. إنّ الله قويّ عزيز}، وكنت أظنّ وقتَها أنّ كلمة (كتبَ الله) هي بمعنى (قال الله تعالى) وأنّ بدايةَ الآية (لأغلبَنّ أنا ورُسُلي) واستغربتُ وقتَها لماذا وضع كلمة (كتبَ الله) داخل القوس..!

كنتُ أجهلُ أمورًا فتعلّمتها، وكنتُ بعيدةً عن الله تعالى - ومازلتُ - ففرَرْتُ إليه بأثرِ كتابٍ ربّما نسيَه صاحبُه.

***

عندما عملتُ كمدرّسة تمْريض في المدرسةِ الثانوية الفنيّة للتمريض بنين، كان من ضمْن الطلاب طالبٌ غيْرُ مميّز في أي شيء، لم تكن حياتُه إلّا مزاحًا في مزاح، لا صلاة، ولا قرآن ولا ذكر، ولا مذاكرة، ولا أي شيء؛ اللّهم إلّا رجولة فطرية وأخلاقيات قويمة تظهرُ في وقت الجدّ والشدّة، كان ذاكم الشاب يُدعى (أحمد)، حاولتُ نصحَ أحمد بكلّ ما أوتيتُ من جهدٍ وعلم لكنّه كان يقابل النصحَ بعدم جديّة، وبعدم الإنصات، بل وفي بعض الأحيان بفعلِ عكسِ ما أنصحه به، حتى اضطرني ذاتَ مرةٍ أن أنعته بـ (الفاشل)!

تخرّج أحمد من المدرسة، وانتقلَ إلى المعهد الفني الصّحي، وانتهى أمرُه، واصلتُ عملي في المدرسة أدرّس موادّ الأمراض الباطنة والأطفال، ومفهومَ التمريض، وغيرها من المواد.. ذاتَ صباح، طرق أحدُ الطلاب

بابَ الفصل، وقال لي (لو سمحتِ يا مسّ، في واحد عايز حضرتك برّه). قلت له (لو طالب خلّيه ينتظر) فقال لي: (لا مشْ طالب، ده شيخ). تعجّبت من مجيء أحدِ الشيوخ إليّ في المدرسة التي يعرفني بالكادِ زميلاتي فيها، أنهيتُ المحاضرةَ على عجَل، ثمّ توجّهت إلى مكان الانتظار؛ فرأيتُ شيخًا يرتدي قميصًا أبيضَ اللّون، قصيرًا من فوق الكعب، كثّ اللّحية، يناديني مازحًا (مِس مروة) فإذا به (أحمد)!

بعدَ سلامات وتعجّبٍ من حاله، وضحكٍ على ماضيه في المدرسة، سألتُه عن السبب الحقيقي وراءَ تغيّره، فقال لي (كنت في انتظار شهادةِ الإعفاء من الجيش لأني ولدٌ وحيد، وقرّرت أن أعملَ بالقاهرة لأغتنم الوقت قبيْل التكليف، وبحثتُ في مستشفيات كثيرة فوجدتُ أنسبها مستشفى كذا، وأقمتُ في سكنِ الشباب هناك، وذاتَ ليلة أخبرني زملائي أنّ هناك حالةً صعبة في طريقها للعناية المركّزة، ولا بدّ من مُمرّض مُلازم لها، يقول أحمد أنه اعترض بشدّة وتضايقَ في أول الأمر لمّا علم أنّها حالة (بتر) ممّا يستدعي عناية تمريضيّةً خاصة، لكنّه تقبل مضطرًّا في نهاية الأمر، يقول فلمّا دخلتُ على المريض وجدتُ عنده أناسًا يزورونه، وعرفت أنّ اسمَه (الشيخ أبو إسحاق الحويني) يقول: لم يأمرْني الشيخ بالصلاة، ولكنّ معاملته معي غيّرتني، ولم يعلمِ الشيخ أني كنت أراقبُه وهو يبكي بين تكبيرةِ الإحرام والفاتحة بكاءً شديدًا ربّما طال لساعةٍ يبكي فيها!

يقول أحمدُ بعد كلامٍ كثير (مِن ساعتها وأنا اتْغيّرت كده يا مس)..

***

ذاتَ يوم، اشتكى لي بعضُ الطلاب قسوةً في قلوبهم، فمرّ بالمدرسة أحدُ الشباب الذي تخرّج مِن المدرسة قبْلهم، وكنتُ أرى على وجهِه سماتِ الصلاح، فقلتُ له: كلّمهم؛ لعلّ الله يغيّر بك رجلًا. في اليوم التالي، اتّصلت بي والدة أحدِهم اتصالًا كاد يُبكيني؛ تَشكرني فيه على المحاضرة التي أعطاها (الشيخ) لهم، قالت: (ابني اتْغيّر خالص يا مِس! الله يصلح حالك وحالِ اللّي كلّمه، أنا مش عارفه أشْكرك ازّاي!)

جديرٌ بالذّكْر أنّ الشيخ الذي كلّمهم هو.. هو (أحمد).

***

ماذا لو توفّرت للمُمرّضات في الحياة، وفي المناهج مثلُ هذه النماذج؟ لو وجدتْ كلُّ ممرضةٍ أثرًا كهذا.. تُرى كيف يكون تأثيرُها في مريضِها، ومجتمعِها، بل وأمّتها!!؟



انْصَحها..

المَريضُ في حِمَى مرضِه

ذات ضُحى، نادى عليّ (أستاذ مُحمّد) أحدُ الإداريّين في المستشفى، وكنت – على ما أذْكُر – قد همَمْتُ بالردِّ بقوّةٍ على أحدِ المرْضى الذي رفع صوتَه عليّ أثناءَ تقديم الرّعاية التمريضيّة، فقال لي أستاذ محمّد أمريْن لم أنسهما أبدًا.. قال لي:

(يا مروة.. معرفةُ الناس كنوز، اعْرفي الناس، اعْرفي ده.. وده، واسْتفيدي من ده.. وده، معرفة الناس= كنوز.. وبعدين المريض يا بنتي في حِمى مرضه.. طول ما هو مَريض؛ مينْفعش نردّ عليه لأنّه في حِمى مرضه).

***

في إحْدى المحاضرات، قال لنا أحدُ الأطباء (المُمرّضة الشاطرة محدّش يشوف أسنانها.. ضحك لأ.. أكل لبان لأ.. كلام بصوت عالي لأ.. وحاجة تانية يا بنات، دايمًا خلّو على أبوابكم شمّاعة علّقوا عليها همومكم.. وانتِ خارجة من بيتك علّقي هموم البيت على شماعة باب البيت وروحي المستشفى من غير هُموم؛ لأنّ المريض مالوش ذنب، وانتِ خارجة من المستشفى علّقي هموم الشغل على بابِ المستشفى وروحي البيت من غير هَمّ؛ أهلك مالهمش ذنب).

***

ذاتَ يوم، عرفتُ أن أحدَ طلاب المدرسة يدخّن، لكنّي لم أكنْ أعرف مَن هو على وجْه الدقّة، وكان مِن المُفترض أن يتمّ تفتيش الفصل كلّه، وبالفعل كانت إحدى المدرّسات قامت بذلك، لكنّنا لم نصلْ إلى مُرتكب هذه المعصية، فأعانني الله – تعالى – ودخلتُ الفصل، وحدّثتهم عن التّدخين وخطورته.. وكذا؛ فإذا بأحدِ الطلاب يُخرِج مِن جوْربه علبة سجائر، ويقطّع كل السجائر التي بها، ويلقيها في القمامة.

***

المُمرّضةُ هي أشدّ أفرادِ المجتمع احتياجًا للنصيحة، وهي أشدّهم استماعًا لها وعملًا بها، فقط لو غلّفنا نصيحتَنا بشيءٍ من التّقدير والاحْتواء والاحترام.

الجرعةُ الثّامنة

قدّرها..

فارما كولوجي

في أوّل عامٍ في المدرسة الثانويّة الفنية للتمريض، كانت مادّة «التشريح» من ضمْن المواد المقرّرة علينا. وكان المُحاضر هو "دكتور أحمد عبد السلام" مدير المستشفى آنذاك، شرحَ لنا "دكتور أحمد» المادّة بمنتهى الدقّة، ويْكأننا سنمْسي طبيبات، لم يبخلْ علينا بمعلومة، شرح لنا - مِن ضمْن ما شرح - الدّورة الدموية، فحفظتُها منه، وفهمتُها حتى أنّني مازلتُ أذكرها منه إلى الآن رغمَ مرور السّنين واختلاف الأساتذة!

***

كان دكتور "مجدي" أحدَ الأساتذة الذين حاضروا لنا في المعهدِ الفني الصّحي، كان يحبّنا جدًّا، لا يفتأ يذكّرنا بذلك، كان يحترمُنا جدًّا، ودائمًا يعترفُ لنا بذلك، كان يثقُ بنا جدًّا جدًّا، كنّا نشعر بذلك دائمًا.. كانت مادّته تُسمى (فارما كولوجي) أو علم الأدوية، أو كما كان يُطلق عليها قديمًا (الأقربازين)، كان "د. مجدي" يشرحُ لنا المادة ببساطةٍ تتناسب مع عقولنا آنذاك، فيوضّح لنا ما هو الـ (فارما كولوجي) والـ(فارما كوكينيتك) والـ (دوز) والـ (آكشن) والـ (بيركشن) وغيرها من المُصطلحات. كان دائمًا يقول (ماتخافوش من الامتحانات) فنطمئنّ ويذوبُ خوفنا ثمّ نركّز في مادته، وكان يقول (اتعلموا.. بكره تقولوا الله يصبّحك بالخير يا دكتور مجدي).. وهاأنذا تعلمتُ، وأقول (الله يصبّحك بالخير يا دكتور مجدي).

***

في أوّل تعييني في مدارس التّمريض، وكان ذلك بعد أن تمّ إخلائي تعسفيًّا (من قِبَل فلان الفلاني مدير المستشفى) فأبدلني الله اللطيفُ بالمستشفى مدرسةً لطالما رجوتُ أن أعملَ بها، ذهبتُ للمدرسةِ خائفةً مترقّبة أحسبُ لعملي الجديد ألفَ حساب، أتنبّأ في كلّ حسابٍ بألفِ فشل، فدخلتُ المدرسةَ وسلّمتُ على مَن فيها أحملُ أوراقي وأعرّفهم بنفسي، وكان من ضمْن المعلّمات معلمةٌ حبيبة اسمها (أبله سحر).

أخذتني (أبله سحر) من يدي وتعرّفتْ عليّ سريعًا، وابتسمت لي، فكانت ابتسامتها كأنها بلسمٌ داوَى مَخاوفي، ثمّ رافقتني إلى الفصول، تطرّق بابُ الفصل، وتدخُل في ثبات، ثمّ تقول بصوتٍ عالٍ (قيام يا ولاد)، فيقوم الطلاب ثمّ تتابع (دي مِس مروة.. مدرّسة جديدة معانا في المدرسة) ثمّ تزيد كلامًا نسيتُه، فقطعتْ بذلك شوطًا ما كنتُ أظنّه يُقطَع ووثقت بي فيسّرت عليّ يسّر الله عليها.

تمرّ الأيامُ لأصبح مديرة المدرسة.. تُرى إلى أيّ مدى لعبتْ (أبله سحر) دورًا في نجاحي؟

***

في المعهدِ الفني الصحّي، كان مدير المستشفى (د. محيي) يقدّرنا جدًّا، كنّا الدّفعة الأولى في المعهد، وكان فَرِحًا بنا أيّما فرح.. أذكر أنّه كان يقول للأطباء الذي يلومونه على (تدليله) الزّائد لنا: (دول ابني البِكر) حتى اشتهرتِ الكلمةُ، وصرنا نعملُ بمقتضاها. كان الجميع يُراهنُ على عدمِ نجاحنا بسبب التّدليل الزائد من وجهة نظرهم. أذكر أنّ (د. محيي) عندما عَلِم بأوّل (يوم ميلاد) لواحدةٍ فينا منذ انتسابِنا للمعهد؛ أقام حفلًا كبيرًا،

وجاء إلينا ليلًا، وحضر معنا الحفل، ثمّ ودّعنا وقد غمرتْنا الفرحة باهْتمامِه بنا (حيث كانت كلّ واحدة فينا مُغتربةً بعيدة عن أهلها)، وأذكر أنّنا طلبنا مِنه أنْ نتريّض في المدينة، ونستمتع ببعضِ الوقت في حدائقها، فلمّا خافَ علينا مِن أن يتركَنا وحْدنا في بلد غريب؛ أمرَ الإسعاف أن يقلّنا إلى حيث نريد، ويمكثَ معنا حتى نكتفي بالفسحة. كان الأمر مُضحكًا ومسلّيًا، كنا نسخر من الوسيلة التي تقلّنا لكننا قدّرنا له خوفه علينا. عامان كاملان قضيناهما في المعهدِ الفني الصحّي، كانت نتيجتُهما أننا حصلنا على مراكزَ أولى (امتياز مع مرْتبة الشرف)، وأكمل معظمُنا مسيرتَه التعليمية إلى الجامعة.

***

لمّا تعيّنتُ في المدرسةِ سألتُ مديرتَها الحبيبة التي كانت بمثابة أمّي: لماذا لا يشتركُ الطلاب في مسابقةِ أوائل الطلبة التي تُقام على مستوى المدارس؟ فقالت لي: هُم فاشلون.. يرفضون المذاكرة.

دخلتُ الفصلَ، وسألتهم: ليه مابتشتركوش في المسابقة يا شباب!؟

قالوا: إحنا فشلة.. مفيش مرّة اشتركنا إلّا وأخدنا المركز الأخير.

ما فعلتُ شيئًا - بعد توكّلي على الله - غيْر أنني طلبتُ منهم أنْ يزيلوا هذه الفكرة من أدمغتهم، وأنْ يؤمنوا بقدرتِهم على النجاح، ثمّ رسمْنا خطة مذاكرة للشهر وللأسبوع ولليوم، ثمّ حفّزتهم بصنع الشاي وبعض البسكويت، واشترطتُ أن تكونَ مذاكرتُهم في مكانٍ أخضر بجوار المدرسة وليس في الفصول. كانت النتيجةُ أن حصل الشباب على المركز الأول على مستوى المحافظة في مسابقةِ أوائل الطلبة، ثمّ فاز أحدُهم بالمركز الأول على مستوى المدارس في امتحاناتِ آخر العام..!

الجرعةُ التّاسعة

أعْطها حقّها..

«نيرس رايت»

سمعتُ كثيرًا عن الـ"بيشنت رايتس» أو «حقوق المريض»، وأخبرني (عمّي عبد العليم) بحقّ المُمرّضة.

في العام الثاني لي في مدرسة التمريض، كان هناك ما يُسمّى بـ»توزيعة العملي" نتنقّل بموجبها من قسمٍ إلى آخر نتدرّب فيه على ممارسة التّمْريض بشكلٍ عمليّ. وكان قسْم «الباطنة رجال» هو القسْم الذي عملتُ به. كان "عمّي عبد العليم" أحدَ المرْضى الموجودين في القسْم، بعد عدّة أيّام من عملي بالقسْم، لاحظتُ أنّ العمل الذي كنتُ مَنوطةً به كطالبةِ تمْريض (وكان عبارة عن فرْش الأسِرّة والإشْراف على بعض العِلاجات البسيطة) لاحظتُ أنه يقلّ تدريجيًّا حتى أنّني لا أجدُ ما أقوم به، ولاحظتُ أنّ أعمالي التمريضيّة تتمّ قبل دخولي القسْم من الأساس! وبعد فترة، عرفتُ أنّ "عمّي عبد العليم" هو الذي يقوم بترتيب الأسِرّة وباقي الأعمال، ولمّا سألته عن سببِ ذلك قال (إحنا عايزينك تيجي تقولي صباح الخير بس)!

أعطاني حقّي من الاحترام والتقدير بما اسْتطاع، وكانت النتيجةُ أنْ زاد اهتمامي بالقسْم لمّا زاد تقديرهم لي.

***

أستاذ "عاطف" كان أحدَ مرضى (قسْم الكُلى الخاص) الذي عملتُ فيه بعد تخرّجي من الجامعة، كنتُ وقتَها (تحت التمرين) وكانت إحْدى

المُمرّضات الكبيرات تُشرف عليّ، فجأة ودونَ سابقِ إنذار، تركتِ المُمرّضةُ العملَ بلا أملٍ في العودة، ولم تُخْطرني إلّا في نفس الساعة التي غادرتِ العملَ فيها!

سُقط في يدي، وبكيتُ بكاءً شديدًا ممزوجًا بالخوف ممّا أجهله، ومِن الشفقةِ على المرضى المساكين الذين ينتظرون منّي خدمةً تمريضيّة بمستوى عالٍ لم أكنْ قد وصلتُ إليه بعد. جاءني الأستاذ "عاطف" في المكتبِ ومعَه زوجته، ثمّ قال "تدرّبي عليَّ» وأخذَ يعلّمني كيف أتعاملُ مع مريضِ الكُلى، وثِقَ فيّ فكانت النتيجةُ مذهلة!

الجرعةُ العاشرة

الصّداقة..

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ..

التحقتُ بمدْرسة التمريض إذًا، وصرتُ «الزّعيمة» في نظرِ صويْحباتي اللّواتي كنّ ينقسمنَ إلى قسميْن متضادّين تمامًا، قسمٌ على الفِطرةِ التي لم تشبْها شائبة، لا يعرفنَ عن الدّنيا إلا آبائهنّ وأمهاتهنّ، وطريق المدرسة (رايح جاي) وحسْب، وقسمٌ آخر ويكأنّه تخرّج لتوّه من (القناطر الخيرية) لا ينقص عن إجْرام المَسجونات فيه إلّا قليل..

كنّ – جميعًا – يتّسمْن بخفّة الظل، وكانت جلسةُ (المجرمات) تسْتهويني إلى حدٍّ كبير. كنّ يتحدّثن عنْ أشياءٍ لا أعرفها، وتجارب أسْتغربُها، ومواقف مُضحكة وحياةٍ بائسة. كانَ (قلم الكحل) في حقائبهنّ لا يفارقُها، وكنا نستدلّ بذلك على أنهنّ يفهمنَ كلّ شيء، ولا يأبهنَ بأيّ سُلطة.

كان فريقُ المتمرّدات يشمل الكثيرَ من بينهنّ (هويدا ورضا) وكان الفريقُ المضادّ يشمل كثيراتٍ منهنّ (هدى ونفيسة ووردة). كان الفريقان متضادّان بكلّ ما يعني التّضاد من معنى، وكنتُ همزةَ الوصل بينهما، أصاحبُ الفريق الفِطري المتديّن الساذج؛ فأكونُ أقواهنّ تديّنًا وسذاجة، ثمّ أصحب الفريق المتمرّد البعيد عن الدّين، فأسبقهنّ إلى التمرّد والبُعد عنه!

مثّل فريق «هدى» وفريق «هويدا» قوّتيْن تجذبانني كمُمرّضةٍ إلى ناحيتيْن عكسيّتين، وكانت تربية الطّفولة وسلامة النشأة وقوّة الفطرة هي العامل الذي رجّح كفّة الأولى على الأخرى، ثمّ كان لصديقاتي الأثَرَ الطيّب على نفسي الذي أثّر على نفسيّة وروح مرضاي.



الجامعةُ فَرق..

كنتُ «تمرْجي»
فصرتُ «بشتمرجي»

كنتُ سعيدةَ الحظِّ لا شكّ عندي في ذلك، ذاك أنّي رُزقتُ دخول التّمريض من أوسعِ أبوابه، ثمّ تنزّهتُ بروضِه أقطفُ من كلّ حديقةٍ غنّاء فيه زهرة، لأجِدَ معي في النهاية باقةً من زهور الحبّ والجَمال والعرفان.

مررتُ إذًا بمراحل التّمريض المُختلفة، ابتداءً من المرحلة الثانوية مرورًا بالمعهد، ثمّ الجامعة، ثمّ الدراسات العليا؛ فهل اختلفَ حبّي للتمريض في مرحلةٍ عن أخرى؟ قطعًا لا، أحببتُ هذه المِهنة حبًّا راسخًا لا يقلّ؛ إذْ لا يليق بها أنْ يقلّ، ولا يزيد؛ إذْ لا مجال بعد التمام لزيادة. لكنّ السؤالَ الأهمّ هو: هل اختلفَ فهمي للتّمريض من مرحلةٍ لأخرى؟ وهل استطعتُ تمثيلَ التّمريض أمامَ الناس بشكلٍ أفضل بعد حصولي على مؤهلٍ عالٍ فيه؟ الحقيقة: نعم..

لم أكنْ أتصوّر أبدًا حجمَ الاختلاف الذي سأجده في نفسي وفي تعاملي مع المرْضى، وفي تعامل المرْضى معي عندما ارتقيتُ في دَرَج التعليم، ولم أكنْ أتصوّر اختلاف نظرتي للمجتمع ونظرتِه لي (كمُمرّضة) بعد أن حصلتُ على بكالوريوس التّمريض، ولم أكنْ أتخيّل أنّ مرحلة الجامعة قادرةٌ على تشكيل الشابّ والفتاة إلى هذا الحدّ!

تضيفُ الجامعةُ – على ما فيها من سلبيّات – إلى المتعلّم فيها قدرًا لا بأسَ به من تقدير الذّات الذي يؤثّر إيجابًا على تعاملاتِه اليومية والحياتيّة فيما بعد. وإذا كنّا نسلّم بأهمّية تقدير الذات عند كلّ إنسان، فمِن باب أولى أن نسلّم بأهميّته عند المُمرّضة التي قلنا في السابق إنّها في الغالب تفقدُ تقديرها لذاتِها واحترامَها لنفسها.

ربّما تكمنُ مشكلة المُمرّضة التي تقرّر أنْ تخوض الدّراسات العليا في أنّ نظرة المجتمع لن تختلفَ كثيرًا عند توْصيفها، فسواء كانت حاصلةً على دبلومٍ فني، أو معهدٍ، أو بكالوريوس، أو حتّى دكتوراه؛ فهي في نظرِ الناسِ (مُمرّضة).. وهذه إشكاليةٌ قد رُصدت، ولستُ الآن بصددِ الحديثِ عنها (مع كاملِ احْترامي لكلمة مُمرّضة، فليست سُبّة نتبرّأ منها)، ولكنْ ما أرمي إليه في هذه الأسْطر هو الفارق (العقلي والنفسي والروحي) بيْن مُمرّضة حاصلةٍ على مؤهلٍ متوسّط، وأخرى حاصلة على مؤهل عالٍ.

***

عندما قرّرتُ تكْملة دراساتي، قال لي أحدُ أقاربي مازحًا (هتبقي إيه يعني! إنتِ تمرجيّة) فلمّا انتهيتُ من الجامعة، ثمّ تمهيدي الماجستير؛ سألته (رأيك إيه دلوقتِ؟) فقال مازحًا (كنتِ تمرجية، دلوقتِ بشتمرجية). لخّصتْ ردودُه في الحالتين نظرةَ المجتمع تلخيصًا حقيقيًّا واقعيًّا جدًّا لا شكّ عندي في ذلك، لكنّ الجميل هنا هو اختلافُ وقْع ردّه عليّ أنا قبل وبعدَ الجامعة.

***

الشاهدُ.. أنّه إذا كنّا نحاولُ فكّ شفراتِ المشكلات التمريضيّة وأسبابها، ونبحثُ عن حلولها؛ فإنّه من أهمّ وأنْجع الحلول في نظري أن نعجّل بجعْل المؤهل العلمي الوحيد للحصول على شهادةٍ في التّمريض هو فقط شهادة بكالوريوس التّمريض فما أعلى، وأنْ نغلق أبوابَ المدارس والمعاهد الفنيّة والشهادات الخاصّة التي ما جنَيْنا منها إلّا تعبَ المَريض والمُمرّضة على حدٍّ سواء.



حِس هِتلر..

تحيّة لبسماتِنا

قرّرت – وليْتني ما قرّرت – أنْ أقيّم أدائي كمديرة مدرسة، وأحببتُ أن يكون الطلبةُ أنفسُهم وسيلةً من ضمْن وسائل التقْييم، طلبتُ منهم أنْ يخبروني بآرائهم في إدارةِ المدرسة دونَ خوف ولا مجاملة (قول رأيك ومتخافش، هفصلك أسبوع بس!).. فقام أشجعُهم، وقال (مِس، أنا بشبّه حضرتك بحدّ بس ماتزعليش). سمحت له بقول رأيه فتردّد، ثمّ تحت إصراري قال المُجرم الصغيرُ رأيَه (حضرتِك يا مِس بتفكريني بهتلر، وبتبقي صعبة في مراقبة الامتحانات قوي) ردّ صاحبُه يستدركُ قائلًا (بس واحنا في رحلة أو يوم رياضي بتبقي مختلفة خالص يا مِس). لا أعرفُ ما سببُ السعادة التي شعرتُ بها، أنْ يعرف الطالب لي وجهين، وجهٌ ليّن عند موقف يستدعي اللّين، ووجهٌ كأنما صُنع من الفولاذ في موقفٍ أرى فيه أنه لا بدّ من الحزم.

وَوَضْعُ النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى

مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدى

عندما تسلّمت العملَ كأخصائيّة تمريض في أحدِ المُستشفيات، كانت لي زميلة اسْمها (بسمة)، كانت بسمة ماهرةً جدًّا في عملها، بيْد أنّها كانت جادّة جدًّا مع الزّملاء الرجال، كان كلامُها معهم مقتضبًا على قدْر الحاجة، حتى إذا ما انْتهى العملُ وجلست المُمرّضات مع الزّملاء من المُمرّضين

أو الأطباء يمزحون سويًّا.. كانت "بسمة" تتركُ المكان وتنتهي من أعْمالها التمريضيّة، ثمّ تغادر القسمَ إلى سكن المُمرّضات، سمعتُ إحداهنّ تنصحُها بأن تكونَ مثل الباقيات، وأن (الولاد زي اخواتك يعني مافيهاش حاجة)، فلم تستمتع "بسمة" إلى نصيحتها. دارت الأيامُ لتقع المُمرّضة التي اعْتادت المِزاحَ في مشكلةٍ كبيرة بسبب مزاحها، بينما أثْنى الجميعُ على "بسمة".

***

سألتُ في منشورٍ على (الفيس بوك) عن المواقفِ التي أعجبتِ المتابعين من المُمرّضات اللواتي الْتقوهنّ في ظروفٍ مرضية، أو في مؤسساتٍ حكومية.. كان من ضمْن التعليقات التي راقتْ لي رغمَ بساطتها تعليقُ أحدِهم الذي قالَ ما معناه (كنتُ في زيارةٍ لأبي، وجاءت المُمرّضة لتعطي أبي العلاج، وكانت بيني وبينها مسافةٌ كبيرة، لكنّها طلبت أن أبتعدَ أكثر حتى لا تنحني أمامي، وكانت شديدة الحياء).

***

الخلاصةُ التي لا ينكرُها عاقل أنّه بقدر تنازلِ المرأة عنْ حيائها، بقدر نزولها من عينِ الرّجل، أيًّا مَن كانت هذه المرأة، وأيًّا ما كانتْ وظيفتُها. والمُمرّضة كامرأةٍ هي أشدّ النساء تعرّضًا للفتنةِ الناتجة عن الاختلاط الذي ابتُلينا به، وعليها - إنْ كانت تريد لنفسها الصونَ والعفاف والكرامة - ألّا تسمح لأحدٍ بتجاوز حدّه معها سواء كان هذا الشخصُ مريضًا أم مُمرّضًا أم طبيبًا، وعليها أيضًا ألّا تسمح لنفسِها بمعايشة واقعِ المُستشفيات والتعايش معه بحجّة انتشاره، ففيروس الإيدز مثلًا قد انتشرَ بشكلٍ مُخيف، هل

تَسمحين لنفسِك بالتعرّض المباشر - أوْ حتى غير المباشر - للعدْوى لأنّ الفيروس قد انتشر؟

صاحبُ الصنعة= هو الأعلمُ بها، وأنا وأنتِ صنعةُ الله - عزّ وجل - الحكيم الخبير، الذي قال {وقرْنَ في بُيوتكنّ..} والذي قال سبحانه {.. ولا تتّبعوا خطواتِ الشّيطان} وقد ابتُلينا بالخروج من البيوتِ ومُخالطة الرجال.

(وأسألُ الله - عزّ وجل - الغفرانَ للذّنب، والعصمةَ من الزّلل) فلا يكون أقلّ من الحذر.

الجرعةُ الثالثة عشرة

القراءةُ ،
ثمّ القراءة ،
ثمّ القراءة

المُلتقى الإخْواني

في صيف عام ٢٠٠٩، سمعتُ من إحدى الأخواتِ عن موقعٍ على (النت) اسمُه (الملتقى الإخواني).. زرتُ هذا الموقع وتصفّحتُه فَراقَ لي، تنقّلتُ بين أركانِه المُختلفة وقراءة ما يكتبُ أعضاؤه فيه، حتى شعرتُ أنني قادرةٌ على فهْم مُجريات الأمور أكثرَ من ذي قبل. قرّرتُ بعدَها أن أنتقل من طوْر المُتابع الصامت إلى طوْرِ العضو الفاعل؛ فبدأتُ أسجّل خواطري في ركْن «شذرات» على اسْتحياء. كنتُ أكتب كلَّ مواضيعي هناك بالعامّية، ولم أكنْ أحبّ الكتابة بالفصحى ولا أستطيعُها، بدأ الأعضاء يثنونَ على ما أكتب، بيْد أنّ أحدَهم نصحني أنْ أكتب بالفُصحى.. بدأتُ الكتابةَ بالفُصحى وكثرتْ أخطائي، لكنه كان يصوّب الأخطاء برَحابة صدرٍ وتشجيعٍ كبيريْن، اعتدتُ على الكتابةِ بالفصحى حتى أنّ ردودي العاديّة على مواضيع الأعضاء المختلفة أيضًا أمْست بالفصحى. في ظلّ الأحداث السياسية والثوراتِ المتتالية، كان بعضُ الأعضاء يُوصون بقراءة كتبٍ مُعينة في مختلف المجالات، قرّرتُ أن أقرأ ما يوصون به، كنتُ قبلَ زيارة الملتقى لا آبَهُ كثيرًا بالقراءة، ثمّ تحوّل حالي معها إلى شغفٍ بها، شعرتُ أنّني كبرتُ بقدر عُمر كلّ مؤلف، زاد تقديرُهم لي.. وبالتالي تقديري لنفسي.

***

لم أنْتبه قبلَ صباح اليوم الذي التقيتُ فيه أحدَ أفراد الجيش إلى أهمّية القراءة في حياة المُمرّضة ونظرة المَريض لها.. في ذلكم اليوم كنتُ قد استلمتُ عملي في مستشفى خاصّ مُخصّص لأفرادِ القوات المسلّحة، كان المريضُ يكلّمني بشكلٍ عاديّ، ثمّ تطرّق كلامُنا إلى موضوع سياسي لا أذكرُ تفاصيله، لكنّي أذكرُ لفظةً بسيطة قلتُها إذْ قال عن بعض الأنظمة (مالهاش..) ثمّ أخذ يفكّر في مرادفٍ تاهٍ عن باله، فقلتُ أستدرك (تقصد مالهاش شرعية؟) فانتبَه، وقال لي (برافو عليكِ، شكلك بنت مُثقفة) ربما تبدو الكلمة بسيطة الآن لكنّها لم تبدُ كذلك في ذاكم الصباح، فقد كنتُ قرأتها لتوّي في مقالٍ وأحببتُ أنْ أستعملها كلفظٍ جديد في كلامي، كنت صغيرةَ السنّ لم أستلم وظيفتي الحكومية بعد، وكان رجلُ القوات المسلحة شيخًا كبيرًا قد أحيل إلى المعاش، فأخذتْ كلمة (برافو) مأخذَها فيّ، حتى كانت منبّهًا لي على أهمّية ثقافة المُمرّضة في تأثير نظرةِ المَريض إليها.

***

في دوْرة (الاستغراب) التي أشرفَ عليها أبو حمزة عبد الرحمن فرج (نحسبُه شهيدًا، ولا نزكّيه على الله)، والتي حاضرَ لي فيها أجلّاء فضلاءُ مثل؛ أ. وجدان العليّ، و د. أحمد الغريب وغيرهما، وحاضرَ لي فيها الأسير الحرّ أ. حسام أبو البخاري. في هذه الدوْرة تعلّمتُ كيف أقرأ وكيف أختارُ الكتب، وكيف أفرّق بين الأولويّات في القراءة.. ثمّ كانَ ما كان في ميدان رابعة – رحم اللهُ شهداءه – فقرّرتُ أن أكتبَ كتابًا يخلّد ما كانَ فيه. وعليه؛ فقد توجّهتُ إلى (دار العلوم) كي أتمكّن من الكتابة

بما هُم أهلٌ له، فتحوّلت الدار مِن كوْنها وسيلةً إلى كونها غايةً في ذاتها، عرفتُ فيها قيمةَ اللّغة العربية وأهميّتها، حتى أنني قرّرتُ أن أكرّس كلّ جهدي للدّفاع عنها بإذن الله.

***

الشّاهدُ أنني مذْ عرفتُ طريقَ القراءة، ونُصحتُ بالإكثار منها، وتعلّمت كيفيتها؛ تغيّر نمطُ حياتي بشكلٍ عام، وتغيّر أسلوبي في المهنة بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، وصرتُ أتحدّث عن الكتب وأنصحُ ببعضها، ويْكأنني من أهْلها بحقّ (وما أراني إلّا من المتطفّلين عليها)، وكنتُ في كلّ مرّة أذكّر نفسي ومَن يعرفني أنّني (مُمرّضة)، حتى جاءتني رسالة ذاتَ يوم من طبيبةٍ أسنان تسألني (ازّاي اشْتغل مُمرّضة زيّك؟)، فاجأني هذا السؤالُ وأسْعدني جدًّا، إذْ مِن الطبيعي (حسْبما سُقنا من أسبابٍ ونتائج) أن تتمنّى المُمرّضة أن تصيرَ طبيبة، ولم يكنْ مِن الطبيعي أن يحدثَ العكس.

***

علمتُ أنّ القراءة قد آتتْ بعضَ ثمارها، وآليتُ على نفسي أنْ أستمرّ في هذا المِضمار إلى أن أصلَ إلى بُغيتي منه (وما أظنّ المرءَ محصّلًا بعضه حتى يأتيه اليقين!)

خلاصةُ القول أنّ القراءةَ من أهمّ الأبواب التي يتعيّن على المُمرّضة وُلوجه، وعليها أنْ تقرأ في كلّ شيء، تبدأ بالقرآن وتفسيرِه وتدبّره، ثمّ صحيح الأحاديث، ثمّ العقيدة، ثمّ السيرة، ثمّ الفقه، ثمّ بعض تراجمِ التّابعين والصّالحين، حتى إذا ما اكتملتْ عدّتها (الدينية) توجّهت إلى مجالها، فقرأت فيه كلّ جديد، ثمّ اتّجهت إلى ما يعزّز العربيةَ في قلبها،

وعليها أنْ تقرأ للكبار من أمثالِ الرافعيّ ومحمود شاكر وغيرهما.. ويا حبّذا لو قرأت بعضَ أشعار العرب، ربما يسأل سائل: ما علاقة كلّ هذا بكوْنها مُمرّضة!؟ أجيب فأقول: ألا تذكرُ أنّنا قد اتّفقنا قبلًا أنها إنسانة؟ وأنّه ينبغي عليها أن تقدّر ذاتها؟ وأنّ على المجتمع أن يثقَ بها؟ ثمّ ألم نقلْ أنّ المُمرّضة لو عرفتِ الله – عزّ وجل – حقّ المعرفة؛ لكانَ من اليسير عليها أنْ تتقيّه – سبحانه – في مريضها؟

صدّقني.. الدائرةُ وإنِ اتّسعت فنقاطُها متّصلة، ولا غنى عن نقطةٍ فيها عن الأخرى.

الجرعةُ الأخيرة

هَرم «ماسلو»

هرمُ ماسلو،
أو هرمُ الاحتياجات الإنسانية

هي نظريةٌ سيكولوجية اقْترحها أبراهام ماسلو في ورقةٍ نشرها بعنوان «نظريةٌ في التحفيز الإنساني» يرى فيها أنّ الناس عندما يحقّقون احتياجاتهم الأساسية يسعونَ إلى تحقيقِ احتياجات ذاتِ مستويات أعلى.

وتترتبُ حاجاتُ الإنسان – حسبما يراها ماسلو – مِن الأهمّ فالمُهمّ، والأهمّ هو الذي يكون في قاعدةِ الهرم، بينما تتَدرجُ باقي الاحتياجات حتى نصلَ إلى قمّة الهرم.

وتفصيل الاحتياجات كالآتي:

الحاجاتُ الفسيولوجية

يحتاج الإنسانُ في المرحلة الأولى من حياتِه الاحتياجات الفسيولوجية؛ المأكل، والمسكن، والملبس.

الحاجات إلى الأمن

يحتاج الإنسانُ في المرحلة الثانية إلى الإحساس بالأمن، وعدم تحقيق هذه الحاجة

سيؤدي بالفرد إلى انشغالِه فكريًّا ونفسيًّا ممّا يؤثر على أدائه في العمل.

الحاجاتُ الاجتماعية

يحتاج الإنسانُ في المرحلة الثالثةِ أن يكوّن له جماعة مثل؛ الصداقات، والرغبة في مساعدة الآخرين، والرغبة في مساعدة الناس لشخصه. وقد أوضحتِ الدراساتُ أن جوَّ العمل الذي لا يستطيع إشباع هذه الحاجات يؤدي إلى اختلاف التوازن النفسي لدى العاملين. ومِن ثمّ إلى مشكلاتٍ تؤدي إلى نقص الإنتاج، وارتفاع معدّلات الغياب، وترك العمل.

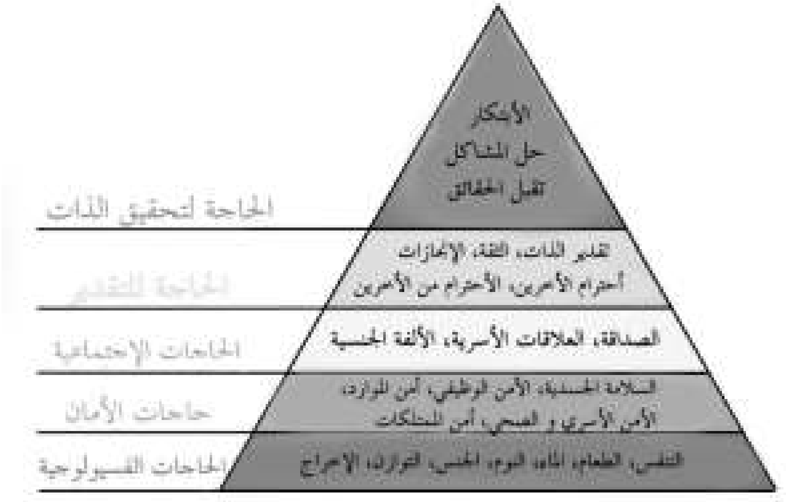
حاجاتُ التقدير

يحتاجُ الإنسانُ في المرحلةِ الرابعة إلى كسبِ احترام الناس، والتقدير، والرغبة في الظهور، والتميّز في العمل؛ لذلك فإنّ المُدراء الذين يركّزون على حاجات التقدير كمحرّكٍ لدوافع العاملين تتحقّق أهدافُ مشاريعهم على عكس مَن يقلّل مِن إمكانيات الفرد في المؤسسة.

الحاجةُ إلى تحقيق الذّات

يحتاجُ الإنسانُ في المرحلة الخامسة أن يحقّق الصورةَ التي يتخيّلها لنفسه، ويتمكّن الإنسانُ في هذه المرحلة من مواجهةِ التحدّيات دونَ خوفٍ من الفشل في تحقيق النجاح.

(وفي الشكل التالي اختصارٌ هذه الاحتياجات)



"ماسلو" واجَه بعضَ الانتقاداتِ بخصوص نظريّته، لكنْ لم تمنعْ هذه الانتقادات وزارةَ الصحة المصرية أن تجعلَ هذه النظرية مقرَّرة على طلاب التّمريض في المراحل التعليمية المختلفة. والسؤالُ هنا: كيف نطالبُ المُمرّضة بأن تساعدَ مريضَها على إشباع احتياجاته؛ في الوقت الذي تفقدُ هي هذه الاحتياجات!؟ أمْ أنّ مسئولي الصحّة من مناصري قول (فاقدُ الشيء ربّما يعطيه)؟! مَكمنُ الخطورة هنا - في وجْهة نظري - أنّ المُمرّضة ربّما تكونُ في مرحلةِ الحاجات الأساسيّة (تحتاج ملبسًا مثلًا أو طعامًا صحيًّا)، ثمّ يقدّر لها أنْ تتعاملَ مع مريضٍ قد أشبع كلّ احتياجاته الأساسية حتّى تدرّج إلى آخر، و(أرقى) مرحلةٍ وهي مرحلة (الابتكار)، كيف يُطلب من المُمرّضة مساعدة مريضِها على الابتكار في الوقت الذي لا تجدُ فيه لقمةَ عيشٍ كريمة لها ولعائلتها؟ وكيف ينظرُ المريضُ

لمُمرّضةٍ لا تفهم مِن الابتكار حتى اسمه؟ هنا يحدثُ الخلل، وهنا تتدنّى نظرةُ المَريض (كفردٍ من المجتمع) إلى المُمرّضة (كممثلةٍ للمِهنة)، فربما مدّت المُمرّضة عينيْها إلى ما متّع الله – تعالى – به مريضها، وبعدها سنشير بأصابع الاتّهام إلى المُمرّضة التي لا أعْفيها، ولكنّي ألتمسُ لها بعضَ العذر.

وبُغيةَ القول أنه لا بدّ مِن توفير احتياجاتِ المُمرّضة إذا أردْنا منها أن تحقّق احتياجَ مريضها، وعلى المُمرّضة أيضًا أن تحاولَ تحقيق ذلك لنفسِها بنفسها إذا لم تجدْ مَن يساعدُها في تحقيقه، ولا أعتقدُ أنّ سيد "ماسلو" بأقدرَ منّا على التنفيذ.. فقط إذا توفّرت عندنا الإرادة.

هؤلاء مُمرّضون ومُمرّضات

رُفيْدَة بنت سعدٍ الأنصارية رضي الله عنها

مِن الصحابيّات الفاضلات، بايعتِ الرّسول - صلى الله عليه وسلم - بعدَ الهجرة، واشتركتْ في غزوتَي الخندق وخَيْبر، وكانت - رضي الله عنها - قارئةً، كاتبة، وصاحبةَ ثروةٍ واسعة؛ حيث كانت تنفقُ على عملها هذا مِن حُرِّ مالها، وخالصِ ثروتِها، متطوّعة بالجهدِ والمال في سبيل الله. وكانت لها خيمةٌ بالمسجد تداوي الجرْحى، وكان سعد بن معاذ عندها تداوي جرحَه حتى مات. وقد شهدتْ يومَ خيبر. استهوتها حِرْفة التّمريض، ومهنة التّطبيب والمُداواة، وتفوّقت في ذلك حتى اشتهرَ عنها، وعُرفت بين الناس قاطبة. وكانت يومَ أحدٍ تستضيف الجرْحى، تضمِّد جراحاتِهم، وتُسعفهم، وتسهرُ على راحتهم، وتواسيهم.

كانت - رضي الله عنها - تخرجُ في الغزوات، وتنقلُ معها خيمتَها بكلّ مُتطلباتها وأدواتها واحتياجاتها فوقَ ظهور الجِمال، ثمّ تُقيمها بإزاءِ مُعسكر المسلمين، تشاركُها العمل الصحابيّاتُ - رضوان الله عليهن -؛ لذا تعتبر خيمةُ رفيدة الأسلميّة على الرغم من بدائيّتها أولَ مستشفى ميداني. ولم يكنْ عملُ رفيدة مقتصرًا على الغَزوات فقط، بل عَمِلت أيضًا في وقتِ السِّلم، تُعاونُ وتُواسي كلّ مُحتاج. وكانت أولَ سيدةٍ تعمل في نظامٍ أشبه ما يكونُ بنظام المُستشفيات في وقْتنا.

أمّا كوْنها أوّل مُمرّضةٍ في الإسلام فليس في ذلك خِلاف، فقد ذاعَ صيتُها بين معاصريها في فنّ الجِراحة، لهذا السبب اخْتارها الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعلاج سعد بن معاذ رضي الله عنه. روى مسلمٌ عن عائشةَ – رضي الله عنها – أنها قالت: أصيبَ سعد بن معاذ يومَ الخندق بسهمٍ أطلقه أبو أسامة الجشمي حليف «بني مخزوم»، فأمرَ الرسولُ – صلى الله عليه وسلم – رفيدةَ أنْ تقيم خيمةً في المسجد ليعوده مِن قريب.

وقد وردَ في الإصابة أنّ ابن إسحاق ذكرَ رُفيدة الأنصارية أو الأسلميّة في قصة سعد بن معاذ لمَا أصابه بالخندق، فقال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : «اجعلوه في خيمةِ رُفيدة التي في المسجدِ حتى أعوده من قريب».

وفي سيَر أعلام النّبلاء وردَ أنه: لَمَّا أُصِيْبَ أَكْحَلُ سَعْدٍ، فَثَقُلَ، حَوَّلُوْهُ عِنْدَ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، تُدَاوِي الجَرْحَى. فَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا مَرَّ بِهِ يَقُوْلُ: (كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟ وَكَيْفَ أَصْبَحْتَ؟) فيُخْبِرُهُ، حَتَّى كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي نَقَلَهُ قَوْمُهُ فِيْهَا، وَثَقُلَ، فَاحْتَمَلُوْهُ إِلَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، إِلَى مَنَازِلِهِم.

وتقديرًا من النبي – صلى الله عليه وسلم – ، كان يُعطي رُفيدة حصةَ مُقاتل، فقد ذكرَ أبو عمر عن الواقدي أنّها شهدت خيبر مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأسهَمَ لها سهمَ رَجُل.

Florence Nightingale.

فلورنس نايتينجيل

ويطلق عليها اسمُ (سيّدة المصباح) وتُعرف برائدةِ التّمريض الحديث، وكانت فلورنس من عائلةٍ غنيّة تؤمن بتعليم المرأة، وكانت تطمحُ أنْ تصبح مُمرّضة، لكنّ والدها رفضَ في البداية، وعلى الرغم من رفضِ والديْها إلّا أنّ فلورنس مضتْ قُدمًا في طريقها لتعلّم التّمريض.

في عام ١٨٥١، تعلّمت التّمريض، وكانت تؤمن بأهميةِ وضرورة وضعِ برامج لتعليم التّمريض، وبرامج لتدريس آدابِ المهنة، وأن تكونَ هذه البرامج في أيدي نساءٍ مُدرّبات، وعلى أخلاقٍ عالية يتحلّين بالصفات الحميدة.

اهتمّت «فلورنس» بالنظافة وقواعدِ التطهير، وبتمْريض الصحّة العامة في المجتمع، وتعتبر أولَ مَن وضع قواعدَ للتّمريض الحديث، وأسسًا لتعليمِ التّمريض، ووضعت مستوياتٍ للخدمات التمريضية والخدماتِ الإدارية في المستشفيات. وفي عام ١٨٤٩، زارت مدينة الإسكندرية في مصر موفَدةً من جمعية (سان فنسان دي بول) حيث قامتْ بزيارة المُستشفيات والمدارس التابعة لهذه الجمعية. وكانت تقضي الجانبَ الأكبر من يومها في دراسةِ أحوال المُستشفيات في لندن، وأخذت تنادي بإقامةِ أوّل معهدٍ للتّمريض في بلادها، وبالفعل تحقّقت أمْنيتها، وأنشئ

المعهد عام ١٨٥٣، وأسندت إليها فيه مهمّة إدارته وقد سمّوه (معهد السيدات النّبيلات للعناية بالمرضى) وكان بيتًا صغيرًا للتّمريض يجمعُ السيدات الرّقيقات خلقًا وحالًا، ونجحت نايتنجيل في عملِها الجديد، فلم تكدْ تنقضي فترةٌ قصيرة من الزمن حتى انْتقلَ المعهد إلى مبنى أكبرَ وأضخمَ ليصبح قادرًا على استيعاب الأعداد المتزايدة من المُمرّضات اللّواتي أقبلنَ على الالتحاق به. وبدأت نايتنجيل لأوّل مرة تطبّق نظرياتها العلميّة الجديدة في علاج المرضى، وكانت أولُها النظافة التامة، ثمّ الإصْرار على فتح النوافذ، والسماح للهواء النقي بدخول الغرف، حتى في أيام الشتاء الباردة. وتغيّر الحال، وبدأت جيوش المرض والجراثيم تتراجعُ أمام نسمات الحياة، وقصرت فترةُ علاجهم، وغادروا المستشفى وهُمْ أكثرُ ما يكونون صحةً وعافية. وبدأ الناس يتحدّثون عن هذه السّاحرة التي تعالج مَرْضاها بالشمس والهواء.

وصفتْ فلورنس نايتينجيل المُمرّضة في مذكّراتها بالصفات التالية:

يجبُ أن تبتعدَ عن الأقاويل والإشاعات، ويجب ألّا تتحدث عن مَرْضاها أو أسْرارهم، وأن تكون أمينةً على مرضاها، وأن تكون دقيقةَ الملاحظة، رقيقةَ المعاملة، حسّاسة لشعورِ الغير، ولا تتأخّر على المرضى عند تنفيذِ طلباتهم؛ حيث أنّهم يضعون حياتهم بين أيديها.

أميرة

عرفْتها قَدَرًا وأحببتُها، كانت من أسرةٍ مُتوسطة الحال، وكانت كريمةً جدًّا في التعامل معي، طُردْنا من المدينة الجامعية معًا بسبب انتمائنا الديني، ثمّ قطنّا سكنَ مُغتربات يبعد عن الجامعة. كنّا نصل السكَن سويًّا، أرتمي بقدميّ المهلكتين، أغفو قليلًا لأستيقظَ على رؤيتها وهي تخلع نعليّ، ثمّ تأخذُ الجوْربين تغسلهما، وتجهّز الغذاء، ثمّ تنادي برفق (كُلي لقمة ونامي)!

زُرتُ «أميرة» فرأيتُ في بيتِها العجب، الطيبة، والكرم حدّ إطماع الضيف، والتّرحيب حتى تشكّ أيّكما أهل البيت!

لم أكنْ أعرف أنّ أميرة تعاني مِن وسواس قبل هذا اليوم، حينما استقلّينا (تاكس)، ركبنا وانطلق السائق، فإذا بي أسمع (وسواسها اللفظي) إذ تنطقُ حرف السّين متكرّرًا (اسس.. اسس.. اسس) تردّدتُ في سؤالي، لكن لا بدّ من إنهاء ما أسمع!

أميرة.. إنتِ بتقولي إيه؟ ضحكتْ أميرة التي كانت تخافُ من الرياء، ولم تكن تقصدُ أبدًا أبدًا أن أسمعَها لولا انسجامها في ترديد (أستغفر الله العظيم).

كانتْ ذاكرةً لله - عزّ وجل - على الدّوام، صوّامة، قوّامة، كثيرةَ الصدقة، متواضعةً مع المرضى، ليّنةَ الجانب، حييّة، ماهرةً في عملها. لم

يمنعْها النقاب (كما يزعم أعداءُ السّتر) من حبّها لكلّ مَرْضى قسْم الكُلى، وحُسن تواصلها معهم، وكانوا يحبّونها حبًّا شديدًا. كانت تراعي ضميرَها في عملِها إلى أقصى حدّ، وتحزن لمُصابهم. سافرت «أميرة» إلى دولةٍ عربيّة مع زوجِها وأولادها، ومرّ على ذلك سنواتٌ عدّة، لكنْ مَن بقي على قيدِ الحياة مِن مرضى الكُلى يذكرونَها حتى الآن بكلّ خير.

رفيْدتُنا..

"طويلةُ البال».. "المكتئبةُ دائمًا" وصفانِ خلعتُهما عليها حينما رأيتُها..

مُصابةٌ في عزيزٍ لديها حتى أنّها تمشي تكلّم نفسها..

استمرّ هذا الوضع أيامًا، أعرفُها ولا تعرفني، ربّما ألقتْ عليّ السلام إذا جاورتْني في (طابور الوجبةِ في المدينة الجامعية)، كنتُ ذاتَ أنفةٍ تمنعني من بدْء التعرّف إلى إحداهنّ، خاصةً أنني أتيتُ لتوّي من المعهدِ الفني الصّحي لا صاحبةَ لي بينهنّ، طال بي الأمدُ في المدينة، وطالتْ وحدتِي حتى رأيتُ ذاتَ صباحٍ بعضَ الشباب يصيحون (لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحِما..) راقتْ لي (الأغنية الجديدة)، راقت لي أكثرَ حتى من أغنية (دياب) التي كنت أدنْدِنها (تملّي معاك).. وراقت أكثرَ مِن غزل (منير) حيثُ المرحلة الابتدائية (يا بتّ يامّ المريلة الكُحلي).. مَن هؤلاء!!؟

هنالك حيثُ (ساحة كليةِ التّمريض) كانت تقفُ (رُفيدة) وكان – لحُسْن حظّي – هو المكان الذي يجتمع الشبابُ عنده بعد (مَسيرتهم) ثمّ يتلون على مسامِعنا كلامًا يسمّونه (وصيّة المؤتمر)

أذكرُ أنهم ذاتَ مرّة هاتفوا رجلًا صوتُه ضعيفٌ، لكنّه مؤثر جدًّا، قالوا إنه (أحمد ياسين)

راقَ لي ما يقولون وما يفعلون، وكنتُ أبحثُ عن شيءٍ لا أعرفه، كأنني وجدتُ جزءًا كبيرًا منه في (رُفيدة) تطفّلتُ عليها فأحبّتني! كان الوقتُ مناسبًا لأنْ أسألها عن عزيزها الذي مات: مَن هو؟ فقالت مُبتسمة: والله ما في حاجة. ثمّ بقي السؤالُ الثاني: انتِ ليه بتكلّمي في نفسك وانتِ ماشية!؟ فعرفتُ أنّها (تذكرُ الله)! كانت جميلةَ الملمح، ذاتَ مشيةٍ هادئة وصوتٍ خفيض. ذاتَ مساء، رأيتُها في مسجد المدينة تصلي.. فعرفتُ أنني لم أكنْ أصلي. طال عهدُ صداقتنا، ورأيتُ منها صفاءَ قلبٍ لم أرَ مثله قطّ، لم أسمعْها في يومٍ تشتكي من أي شيءٍ.. كانت هادئة. ذاتَ ليلة، نادتْ (الأخوات) للصلاةِ في جناح (ب) في المدينة، فتوجّهتُ لمكان الوضوء، وأنا مشمئزّة مُسبقًا ممّا سأراه من عدمِ نظافة تتسبّب فيها بعضُ الفتيات غير المهذّبات، فإذا بـ (رفيدة) تشمّر عن ساعدِها، وتنظّف أحواضَ الحمّام.

***

ذاتَ مرّة، أخبرتْني أنّ معها بعضَ النقود، وأنها تريد شراءَ بعض حاجيات (البنات) فهلّلتُ وكبّرتُ وباركتُ لها فَرحةً بالتطوّر الذي أخبرتْني به.. الْحقوا يا ولاد.. رفيدة هتشتري (كذا) فإذا بها تنعطفُ إلى غير وجْهتنا، وتذهب لبيّاع عطور تبْتاع بكلّ مالها عطرًا.. (إيه ده يا رفيدة؟!) فقالت مُبتسمة: (أخويا بيحبّ النوع ده).

***

في يوم خميس، اتّفقنا – وليْتنا ما اتّفقنا – أنْ نسافر سويًّا حيث أنّ بلدتَيْنا قريبَتان مِن بعضهما، وتجهّزنا، وكانت لا تملك حقيبةً لملابسها فذهبتْ لتطلبَ مِن إحداهنّ (شنطة بلاستيكية كبيرة) فتأخّرتْ عليّ كثيرًا،

وعند عودتِها كدتُ أنقضّ عليها من الغَيظ (كنتِ فين يا هانم ده كله؟!) فقالت بهدوئها: (والله جبتِ الشنطة من بنت، وبعدين وانا ماشية في الطرقة لقيتْ واحدة محتاجة شنطة، ادّيتها اللّي معايا ورحت دوّرت على شنطة تاني) احترتُ في أمْرها، كنتُ إذا رأيتُها تذكّرتُ قولَه سبحانه {والذينَ يمْشونَ على الأرْضِ هوْنًا}..

صحيحٌ أنّني لم أرَها بعدما تخرّجنا، لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ طالبةَ تمريض هذه أخلاقُها ستكونُ مُمرّضة يُحتذى بها.

أحمد جمال

زميلٌ لي في (مَدارس التّمريض)، أمسى بيْن ليلةٍ وضحاها نموذجًا لم نستطعْ إلّا الاقتداءَ به في المدرسة، توصّلتُ إليه بعدما تفرّقنا كلٌّ في طريقِ مواصلةِ حلْمه، وخشيتُ أن يعلمَ بأنّني أريد التحدّث عنه في كتابٍ فيرفضَ لأنّه لا يرى نفسَه كما نراه، فأخبرتُه - صادقةً - أنّني أريد التحدّث عنه أمامَ طلاب المدرسة ليكون قدوةً لهم، فطلبتُ منه أن يرسلَ لي (سيرته الذاتية) لأحكي للطلابِ بدقّة، فأرسل لي ملفًّا آثرتُ أنْ أنقله هنا كما هو لصدقِه، ولكثرةِ الدّروس الموجودة فيه، والتي ستؤثّر لا شكّ في كلّ قارئٍ لها.. يقول:

اسمي أحمد جمال سلّام، ولدت سنة ١٩٨٩ في مدينة "أبو كبير" محافظة الشرقية، نشأت في أسرةٍ محدودة الدخل، كان والدي مدرسًا في مدرسة ابتدائي، بينما كانت والدتي ربة منزل، شعرتُ بالمسئولية الحقيقيّة لأوّل مرة في حياتي وأنا في الصف الأول الابتدائي حين لم أجد أبي المدرّس الذي كان يصطحبني يوميًّا إلى مدرسة «صلاح سالم الابتدائية» بأبي كبير مقرِّ عمله، فبسبب ضيق الحالة المادية اضطرّ أبي للسفر إلى إحدى الدول العربية، وفوجئت بأمي تحدّثني بلغةٍ جديدة، وبكلمات لأوّل مرة أسمعُها (انتَ راجل البيت مكان بابا، خدْ بالك من أخوك الصغيّر)، عاد أبي بعد مرور عامٍ فقط بسببِ مشكلة صحيّة في عينه أسفرت عن عجزٍ كامل أقعدَه فيما بعد عن العمل.

تتلمَذت على يدِ أستاذتي (نازك) التي درّست لي اللغة العربية والخط، وكانت سببًا أساسيًّا في تشجيعي وتميّزي الدّراسي، بالإضافة إلى مجهودِ وتشجيع والدتي، وكذلك الأستاذة (زينب) التي درّست لي الرياضيات.

أثناء سفرِ أبي، بدأت في تحقيق أوّل حلم يراودني، وهو أن أكونَ عضوًا أساسيًّا ومتميزًا بالإذاعة المدرسية، وبالفعل انضمَمتُ للفريق الإذاعي، وكنت أصغرَ عضوٍ فيه، وبدأت بإلقاء حكمة اليوم "مَن جدّ وجد، ومَن زرع حصد". حقيقة.. لم أكنْ أدرك المعنى الحقيقي لهذه الحكمة، لكنّي أدركتُها مع مرور الزمن، واستطعتُ أن أكون عنصرًا أساسيًّا في فريق الإذاعة المدرسي، وهو "مقدّم الإذاعة". وكنت أذهب مبكرًا قبل الطابور، فتعلمت أنّ مَن يريد التميّز فعليه أن يبذل وقتًا ومجهودًا أكثر، وتعلمت أن التميّز ليس مجانيًّا، بل له مقابل لا بدّ مِن دفعه أولًا حتى تُجنَى ثمارُه.

بعد عودة أبي من السفر، قام بنقل أوراقي إلى مدرسة جديدة، وبطبيعةِ الحال بدأت التعرّف على زملاءٍ وأصدقاء جُدد، ومُدرّسين جُدد، وزيّ مدرسي جديد، ونظام جديد، لكن إحساسي بالأمان بسبب وجود والدي في نفس المدرسة طغى على كلّ المخاوف، لكنْ سرعان ما اكتشفتُ أن وجود والدي بالمدرسة لم يعطني امتيازات، بل على العكس تمامًا لأنّ والدي لم يتوسّط في أيّ شيء يخصّني في المدرسة، وتساءلت لماذا يقول لي «اعتمدْ على نفسك» وهو يستطيع أن يساعدني!؟ فتعلمتُ مِن يومها أن أعتمدَ على نفسي. ومع مرور الوقت في المدرسة الجديدة، تعلّمت أنّ اختلاف الثقافات والبيئات ليست مشكلة، واكتسبتُ مهارة في غاية الأهمية وهي تقبّل الآخر، ومهارة التواصل.

برغم عجز بصره، إلّا أنّ أبي كان يمتلك بصيرةً قوية حيث شجعني ودفعني وثقّفني وعلّمني الكثير، حتى الرياضة.. أصرّ والدي أن ألتحقَ أنا وأخي في لعبة كرة السلة في المرحلة الإعدادية، وعندما سألته: لماذا السلّة؟ أرغبُ في كرة القدم، أجابني «أنت صاحب القرار، لكن حاول التميز بعيدًا عن الزحام» أدركتُ وقتَها ألّا أسير مع القطيع، أمّا والدتي فقد تعلّمت منها الصبرَ، والتحمّل، وكيف أتحكّم في غضبي، وكيف أتقرّب إلى الله.

المرحلة الإعدادية

انضممْتُ إلى فريق كرة السلّة بالنادي الرياضي، وتعلمت مبادئ العمل الجماعي، وأنّ وجود فردٍ مقصّر سينعكسُ بالسلب على الفريق كله، وتعلّمت بعض مهارات القيادة، وتلقّيت التشجيع من مدرّب الفريق (الكابتن عبد الله) الذي كان يقسو علينا في بعض الأحيان من أجل تحقيق الهدف.

الثانوية

بدأتُ مرحلة الثانوية العامة حيث الضغطُ العصبي الرهيب، وحيث أكونُ أو لا أكون. ووُفقت - بحمد الله - في اجتياز هذه المرحلة؛ حيث حصلت على مجموع ٩٥,٦٪ في قسم علمي علوم، وكان عليّ الاختيار بين كلية العلوم وكلية التّمريض. اتّجه معظمُ أصدقائي لكليّة العلوم، وكنتُ أرغب فيها في البداية، لكنّ أبي كانت له رؤية أخرى لم أكنْ مقتنعًا بها في البداية، لكنّه - وبكلّ حكمة - أخذ بيدي، وذهبنا لصديقٍ له يعمل أستاذًا في كلية العلوم، ثمّ ذهب لصديقٍ آخر يعمل طبيبًا، واستمعتُ لهما بموضوعية، ثمّ قرّرت أن ألتحقَ بكلية التمريض. ظلّت بداخلي مخاوفُ عديدة فلم تكنْ عندي صورةٌ ذهنية عنِ التّمريض، وأظهرها الإعلام أمامي بشكلٍ لا يليق.

المرحلة الجامعية

قضيتُ العامَ الجامعي الأوّل وأنا مازلت لا أرى الجانبَ الحقيقي لمهنة التّمريض ممّا أصابني بشيءٍ مِن الإحباط، بعدها شجّعني والدي على الالتحاق بسوق العمل مبكرًا، والتدرّب بشكل عملي في (مستشفى العبور بمدينة الزقازيق). وبالفعل، بدأت أولَ يوم عملٍ تحت التدريب بعد انتهاء آخر يومٍ في الامتحانات مباشرة، وذلك بمساعدة (د.هالة زيتون) التي غرستْ فيّ مبادئ مهنةِ التمريض.

بدأ العامُ الجامعي الثاني، ولم ألحظ أي أنشطةٍ فعّالة؛ علمية كانت أو اجتماعية بالشكل الذي كنت أحلمُ به، ولاحظتُ أنّ طلاب كليتيّ الصيدلة والطب لديهم شيء يسمّى (الجمعيّات العلمية) على مستوى الجامعة وعلى مستوى مصر وإفريقيا والعالم، فأخذت أبحثُ عن الجمعيات العلمية للتمريض، فلم أجدْ جمعيّة علميّة واحدة! حينها وُلد حلمٌ بداخلي وهو أنْ أشارك في تأسيس جمعيةٍ علمية لطلّاب التّمريض على مستوى جامعة الزقازيق، وعلى مستوى مصر وإفريقيا والعالم.

بعد التخرّج

بعدما حصلتُ على الباكالوريوس في علوم التمريض ٢٠١١، تمّ التحاقي بالخدمة العسكرية بمستشفى سوهاج العسكري بمحافظة سوهاج ٢٠١٢ لمدة عام. تعرّفت خلال هذه المدّة على المعدن الحقيقي لأهل الصعيد، وأنهيتُ الخدمة ٣٠ مايو ٢٠١٣، ثمّ فوجئت أن عملي الحكومي في مستشفى بني سويف للتأمين الصحي. بعد ذلك، حصلت على شهادة تدريبِ مُدرّبين مُعتمدة من جامعة القاهرة يونيو ٢٠١٣، وبعدها أصبحت

مدربًا واعيًا مدركًا لأهمية وآليات التدريب، وإلى أي مدى يمكن أن يغيّر التدريب الأشخاص بشكلٍ كامل. استمرّ حزني على وضْع التّمريض المصري الذي يحتاج الكثيرَ لتطويره والارْتقاء به؛ فقرّرتُ مُمارسة التخطيط والتدريب بالتّعاون مع بعض الزملاء فى مجالِ مِهنة التّمريض؛ أوّلهما صديق عمري (أحمد شوقي) والأخرى (أمل) التي ساندتني كثيرًا، ثمّ أمست زوجتي ورفيقة دربي وأمّ أولادي فيما بعد. وبفضل الله خطّطنا بشكلٍ جيدٍ جدًّا، ولكنّنا لم نوفّق في إقامة التدريب بالشكلِ المرْجو، فبدأت أشعر بشيء من الإحباط سَرعان ما تغلبتُ - بفضل الله - عليه.

قرّرتُ سريعًا أن أتّجه إلى مجال التدريس في مهنة التمريض كي أحقّق ما كنتُ أحلم به طوالَ السنوات الماضية، وهو كيف أساهم في إعدادِ جيلٍ متميّز في مهنة التّمريض، ولكنْ ماذا أقدّم؟ وكيف؟ وأين؟

ولأنّ الله - عزّ وجل - قال {وأنْ ليسَ للإنسان إلّا ما سعى}؛ بدأت بالسعي وطفقتُ أبحثُ في المؤسسات التعليمية الحكومية في مجال التّمريض، وبعد بحثٍ بهمّة وصبرٍ وأمل؛ وفّقني المولى - عزّ وجل - ووجدتُ فرصةً في التّدريس بمدرسة تمريض بمحافظة الإسماعيلية.

وسَرعان ما واجهني تحدٍّ آخر، وهو شرط الحصول على درجة الماجستير كى ألتحق بمهنة التدريس في مجال التمريض، وتحيّرتُ كثيرًا إلى أنْ تمّ تحديد موعد مقابلة شخصية مع مديرِ إدارة التدريب والتعليم الفني بمديرية الصحة بالإسماعيلية (د. سوسن رمضان) وسألتني: هل حصلتَ على ماجستير؟ قلت: ليس بعد. فقالت: لماذا إذن تقدّمتَ للعمل معنا؟ فأخبرتُها أن لديّ مؤهلاتٍ أخرى. وبدأت أعرض شهادات

الخبرة والدّورات السابقة ونشاطي التطوّعي أيام الجامعة إلى أن وصلتُ لشهادة تدريب المدربين. ناقشتني (د. سوسن) في بعض مهارات التدريب والتدريس التي اكتسبتُها، وبفضل الله تمّ قبولي، وأصبحتُ (مدرس تمْريض فني في مدارس تمريض الإسماعيلية).

بمجرد تعْييني، سألتُ نفسي: كيف أنقل خبراتي لزملائي مدرسي التّمريض؟ ثمّ عكفتُ على إعداد مقترحٍ بعنوان «تطوير مدارس تمريض الإسماعيلية» يهدف إلى أربعة محاور: (تطوير أداء مُدرسي التمْريض، وتطوير الأداء الإداري لمديري مدارس التمريض، والارتقاء بالأنشطة الطلابية بالمدارس، وتطوير مناهج التمريض النظري والعملي بمدارس التمريض).. وساعدتني في إعداده (مس أماني أحمد) كثيرًا موجّه عامُّ مدارس التمريض بالإسماعيلية. تقدمتُ بالمشروع إلى مدير عام إدارة التدريبِ بمديرية الصّحة التي ساندت المشروع بقوّة، حتى حقّق مؤشرات النجاح بشكلٍ مُرْضٍ، وتمّ تكليفي بمهمّة منسق عام المشروع، بعدها بدأت أتساءل: هل يمكن أن نطبّق هذه المبادرة في محافظات أخرى؟ وسافرتُ إلى أقرب محافظتيْن وهما: بورسعيد، والسويس. لكنّي لم أوفَّق بسبب الرّوتين الشديد.

كان نجاح المشروع في الزمن القياسي دافعًا لاختياري عضوًا في فريق (تطوير الأداءِ التّمريضي الحكومي على مستوى محافظة الإسماعيلية)؛ حيث تمّ اختيار فرديْن فقط من مديرية الصحّة كنت - بفضلِ الله - واحدًا منهم، وبدأنا نعمل بجدّ واجْتهاد في هذه المبادرة. كلّ هذا بجانب عملي الأساسي كمدرسِ تمْريض فني بمدرسة تمريض الإسماعيلية؛ حيث

وفّقني الله – تعالى – إلى إقامة علاقةٍ تربويّة اجتماعية علميّة قويةٍ ومميّزة جدًّا مع طلاب المدرسة.

تقدّمت بعد ذلك للحصول على منحةٍ من (هيئة التعاون الدولي الياباني في مجال اقتصاديات الصحّة) تهدف إلى كيفية استخدام علمِ الاقتصاد للارتقاء بالمجال الصحّي، وبفضل الله – تعالى – أصبحتُ أوّل مُمرّض في مصر يحصل على هذه المنحة مِن هيئة التعاون الدولي الياباني. مرّعلينا في المنحة عددٌ من المدرّبين سواء أجانب أو مصريّين، وكنت بنهاية كلّ جلسة أنظرُ للمدرب بعين الناقدِ لأنّني كنتُ قد تعلّمت أساليب التدريب المختلفة وكيفية الإعداد الجيد للمحاضرة وكيفية إدارة جلسات التدريب، فمكّنني ذلك من المناقشة وسط المتدرّبين الأجانب. وفي شهر يونيو ٢٠١٤ تلقّيت اتصالًا هاتفيًّا من (د. كوثر محمود) رئيس الإدارة المركزية للتمريض بوزارة الصحة بالقاهرة ملخّصُه أني مرشّح للانتداب لمدّة عام في (فريق تطوير التمريض بجمهورية مصر العربية) شعرتُ وقتَها أنّ ما راودني مِن أحلام طيلةَ سنوات الدراسة قد أوشكَ على أن يكون حقيقة أنا جزءٌ منها.

تسلّمت عملي في الوزارة، ولم تغبِ الإسماعيلية ولا منطقة القناة عن ذهني. ومع مرور ثلاثة أشهر من العمل الجادّ والفحص والتقييم وتجميع المعلومات، أعددتُ مُقترحًا بعنوان «إبداع تمريض القناة». تمّت الموافقة المبدئيّة على المبادرة، وبدأت بزيارة بورسعيد والسويس والإسماعيلية مرةً أخرى. واستطعتُ – بفضل الله – تكوين فرقٍ عملٍ بالثلاث محافظات للمساعدة فى تطوير مستوى مُمرّضات إقليم القناة، ثمّ زرتُ بعد ذلك كلّ

محافظات مصر تقريبًا، واستطعتُ تقْييم وضْع التمريض المصري عن قرب، وبكلّ شفافية.

التحقتُ بعد ذلك (بكليّة التمريض جامعة حلوان)، وذلك لدراسة الماجستير تخصّص "التعليم التّمريضي"، والذي لم يكنْ موجودًا إلّا في كليّتي التمريض جامعة الإسكندرية وجامعة حلوان، ولقرب مسافة حلوان قرّرت أن ألتحق بها، ثمّ انتقلتُ بعد ذلك من وزارة الصحّة بعد شعوري بأنّ مصر في حاجةٍ شديدة إلى تغْيير الروتين الذي أحيانًا يقف عائقًا أمام أي تغيير أو تطوير.

وُفّقت بعد ذلك في القبول كمعيدٍ في (كلية التمريض الجامعة الحديثة لتكنولوجيا المعلومات بالقاهرة) وبتشجيعٍ من الأستاذة الدكتورة (هدى زكي) عميد الكلية؛ استطعتُ أن أؤدّي عملي الجديد بشكلٍ جيد.

***

بدأ «أحمد» مشوارَه بـ «الإذاعة المدرسية» و»فريق كرة السلة» ومجهودات «عمّي جمال سلام» والوالدة الكريمة، و»كابتن عبد الله» و»أبله نيازك» و»أبله زينب»، فتركت كلُّ خطوةٍ من مشواره أثرًا في حياته، وترك كلّ فردٍ لمسةً في حياته، ليصبح «مستر أحمد» الذي تعرّفتُ عليه في مدراس التّمريض نموذجًا وقائدًا لي، ولجميع مَن عرفه مِن الزملاء والزميلات والطلاب والمُدَراء على حدٍّ سواء.

بقي أن أذكرَ أنني عانيتُ حتى توصّلتُ لـ «أحمد» – الموجود خارج مصر الآن – ليواصلَ تحقيق هدفه وتحقيق حلمه.

ـ أين أحمد؟ سألتُ مَن يعرفه لأتوصّل إليه فتضاربتِ الإجابات،

فمِنهم مَن قال: أحمد في تركيا، ومنهم مَن قال إنّه في أسبانيا، ومنهم مَن قال إنّه في أثيوبيا، ومنهم مَن قال إنّه في فرنسا.. ولمّا كثرت الشائعات حول اختفائه من مصر؛ قرّرتُ أن أتعلّم منه، وأبذل جهدًا لأحقّق حلمي البسيط بالتوصّل إلى مكانه وإنهاء صفحات الكتاب، وبعد عناءٍ توصّلت للحديث معَه لأجد أنّ كلّ ما قيل عنه صحيحًا (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) وأنّ المُمرّض العبقري المصري أحمد جمال سلّام قد:

- شاركَ في تأسيس أوّل منظمة دوليّة لطلاب التمريض وحَديثي التخرج في مدينة برشلونة بأسبانيا.

- وشارك في المجلس الدولي للتمريض في فرنسا.

- وشارك في المجلس الدولي للتمريض في ألمانيا.

- وزارَ مقرّ الاتّحاد الأفريقي في أديس أبابا بأثيوبيا؛ لبحث سبل تطوير تمريض أفريقيا، والبدء في ترتيبات تأسيس أوّل منظمة أفريقية لطلاب التّمريض وحديثي التخرج.

- وزارَ دولة تركيا للتعرّف على خطة تطوير التّمريض التركي من خلال الارتقاء بمستوى طلبة التمريض وحديثي التخرج.

- وزارَ دولة رواندا لتأسيس المبادرة الأفريقية لطلّاب التّمريض وحديثي التخرج.

في الختام..

كانتْ هذه إطلالةً بسيطة، حاولتُ فيها تسليطَ الضوء على ما تعاني منه المُمرّضة من قِبَل المجتمع، وما يعاني منه المجتمع من قِبَل الممرضة، مؤكّدةً أنّ لكل ما ذكرتُ استثناءً.

كما حاولتُ فيها تشخيصَ (مرض امْتهان مهنةِ التّمريض) وتحديد علاماته وأعراضه، ثمّ وصفتُ علاجَ المرض من وجْهة نظري.ثمّ عرّجتُ على بعض النماذج المشرّفة للمهنَة؛ آملةً أن يجدَ الكتابُ صدًى عند مَن يهمّهم الأمرُ مِن الزملاء والزميلات والمسئولين وأفراد المجتمع؛ علّنا نصلُ إلى شفاء العلّة.

سائلةً المولى – عزّ وجلّ – أنْ يرزقني وإيّاكم الإخلاصَ في القول والعمل، وفي السرّ والعلن، آمين.

تم بحمد الله

في صَبيحة يوم السّبت..

الثاني عشر من شهر ربيع الآخر لعام ألف

وأربعمائة وتسع وثلاثين من الهجرة.

الموافق/ الثلاثين من شهر ديسمبر لعام ألفين

وسبعة عشر ميلادية.